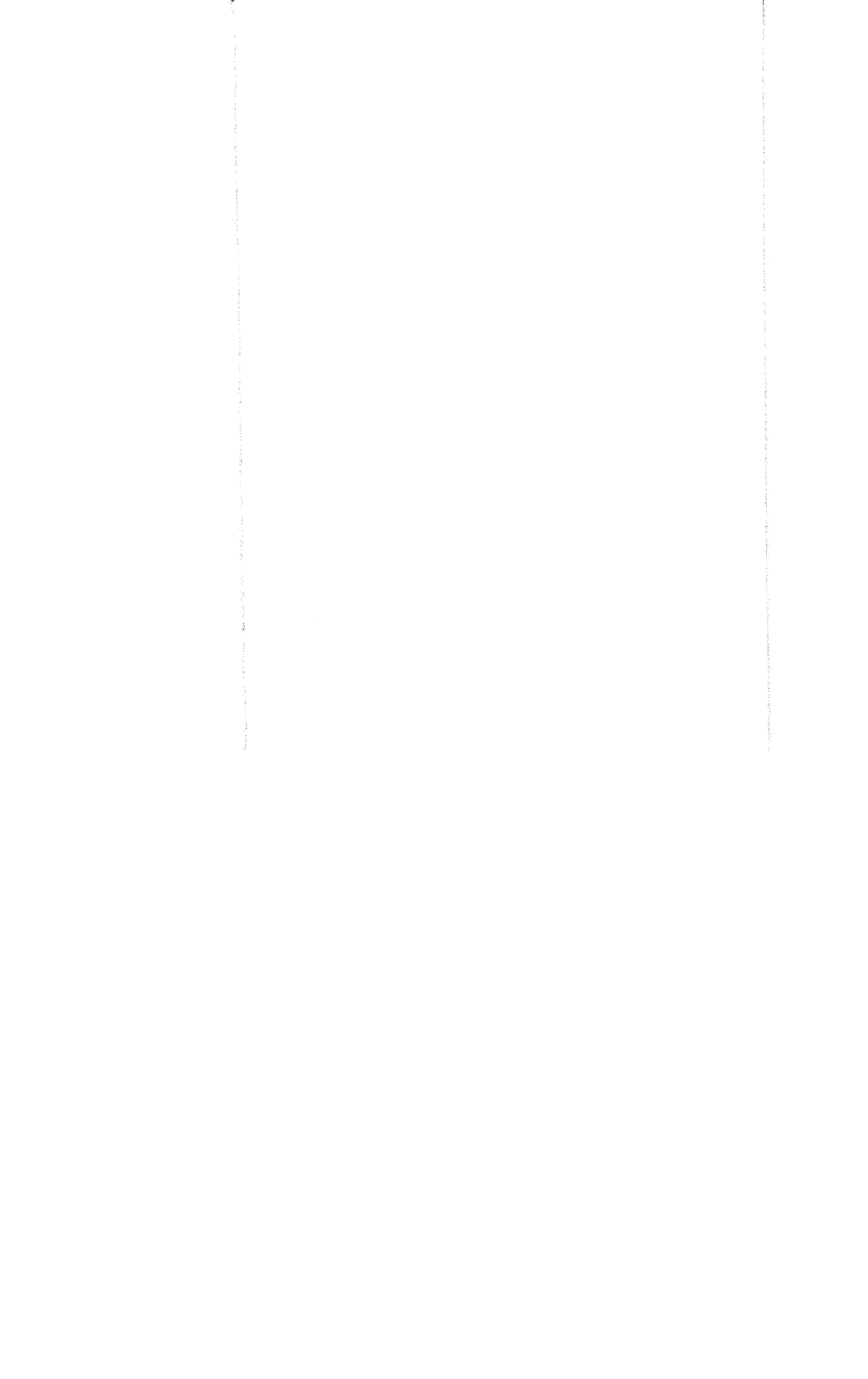
رائحـــــة الخــــبز

مجموعة من الكتاب

ترجمة د. احـــمـد الخـمـيســي





المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى : ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى - القاهرة . رقم بريدى ١١٥٦١

العنوان الأصلي للكتاب

مختارات لمجموعة من الكتاب الروس

الطبعة الأولى

إهداء

إلى أخى وصديقى العزيز حسام حبشى..

رمز اعتزازى العميق بفيض صداقته، وكل ما يجسده من نبل وأخوة صادقة. للسنوات التى مشيناها معاً، والسنوات القادمة، للذكريات، والأمانى.

أحمد الخميسى

القاهرة ١٩٩٩

تقديم

هذه خمس عشرة قصة روسية سوفيتية توقفت عند كل منها خلال قراءاتى بالروسية معجباً متذوقاً وليس لأننى كنت أخطط لترجمة عمل ما وأتخير له مواده كما يفعل المترجمون عادة. وكنت أحس بالراحة بعد انتهائى من ترجمة هذه القصة أو تلك فى أوقات متفرقة، ثم أضعها فى ناحية وأنساها مع أوراق أخرى كثيرة دون أن أسعى لنشرها حتى فى المجلات. هذا إلى أن بدأت فى اكتشاف "يورى كازاكوف" وعالمه المجهول لنا بالكامل تقريباً، ثم أندريه بلاتونوف. وكان الكاتبان العملاقان يخضعان مع آخرين كثيرين للحظر، والنشر بكميات محدودة للغاية تباع نسخها داخل موسكو فى الأسواق الحرة بالعملة الصعبة للأجانب فقط. حينذاك قررت أن أجمع تلك القصص لنشرها يوماً ما، لعلى ألفت نظر القارئ إلى هذين الكاتبين على الأقل.

كان تشيخوف معروفاً رغم أنه لم يترجم عن لغته الأصلية سوى مرة واحدة فى مختارات فى أربعة مجلدات بفضل جهد الأخ أبو بكر يوسف، ومع ذلك اكتشفت أن هناك بعض قصص تشيخوف ممنوعة من التداول مثل قصة "كمان روتشيلد" التى اعتبرتها الأوساط الصهيونية فى روسيا تحقيراً لليهود فحرصت على حذفها، وكانت هناك نصوص أخرى كاملة لعملاق آخر هو فلاديمير دستويوفسكى صاحب رواية "الأبلة" و"الأخوة كارامازوف" ممنوعة من النشر مثل مقالته الشهيرة عن "المسألة

اليهودية" بل وكانت العودة إلى تلك المقالة فى المكتبات تستلزم تصريحاً خاصاً وتفسيراً لدواعى قراءتها! ومع مطلع عام ١٩٨٥ أوائل البيرسترويكا (إعادة البناء) أخذت أسماء الكتاب المحظورين تتقدم الصفوف، فقفز اسم الشاعرة أنا أخماتوفا، وزوجها نيكولاى جوميليوف الشاعر الذى قتل فى محاكمة صورية بتهمة ملفقة، ثم أسماء ميخائيل بلجاكوف، وميخائيل زوشنكو، وطابور كامل من كبار الكتاب كانت أفضل أعمالهم وأجمل سنوات أعمارهم حبيسة فى خزائن حديدية باتحاد الكتاب ربع قرن. ولم يعد للقارئ الروسى من هم سوى مصافحة هذا الصف الطويل الذى انبعث من الماضى ليقول الحقيقة. وكانت مأساة معظم أولئك الكتاب أن بعضهم كان من أشد المخلصين حقاً للثورة الاشتراكية، أو أنهم المخلصون لها فعلاً. وعلى سبيل المثال فقد عاش أندريه بلاتونوف حياة فقيرة اضطرته للتخلى مبكراً عن المدرسة من أجل إطعام أخوته. وتقلب بلاتونوف فى مختلف المهن، وكان يخرج ببذلة واحدة لا يبدلها. وتمكن الكاتب العملاق على مدى ربع قرن من خلق عالم كامل تألق فى مئات القصص القصيرة النادرة المثال، وأربع مسرحيات، وتسع قصص طويلة. وفيما بعد اعترف الروائى العالمى أرنست همنجواى أنه لم يكن ليكتب "العجوز والبحر" من دون أن يقرأ أندريه بلاتونوف! وكان بلاتونوف أول من كشف عن "عدم بساطة البسطاء" الذين يجرى اختصارهم أحياناً كثيرة فى صور بشر يسعون من أجل خبزهم، مؤكداً أن كل إنسان وجه لا يتكرر ولغز ينبغى حله. وتوفى بلاتونوف فقيراً ومحظوراً بعد أن

شن النقد الرسمي عليه حملة متهماً إياه بأنه "يلهث وراء التجديد مهما تكلف ذلك، ويكتب بشكل معقد بدلاً من البساطة والوضوح" رغم أنه في اعتقادي أجدر الأسماء في تاريخ القصة الروسية بالانتباه بعد أنطون تشيخوف.

هناك كتاب آخرون مثل ميخائيل زوشنكو الذي كان يسخر بلا هوادة من كافة الظواهر السلبية فأجبرته الدولة على الصمت بعد أن شنت حملتها على المبدعين والعلماء عام ١٩٣٧ فكف عن الكتابة وانكسرت روح السخرية مفسحة المجال فقط للمرارة العميقة.

وعلاوة على ذلك تضم هذه المجموعة نماذج من أفضل أعمال رواد كبار لمدارس أدبية مختلفة مثل قنسطنطين باوستوفسكي برومانسيته الرقيقة ونفوره من الجلافة التي تسود الحياة اليومية، وهناك من رواد الواقعية التقليدية العملاق إيفان بونين، وألكسي ريميزوف ويوري تيريتينوف اللذان ينتميان للاتجاهات الحديثة. لكني أرجو القارئ أن يتوقف باهتمام عند اندريه بلاتونوف وقصة "أوليا"، وكذلك عند يوري كازاكوف الذي نقدم له قصتين "رائحة الخبز" و"كان بكاؤك في الحلم مريراً".

وقد أنهى كازاكوف دراسته في معهد جوركي للأدب عام ١٩٥٨، وفي نفس العام صدرت له مجموعته القصصية الأولى "مانكا"، ثم مجموعته الثانية "عند محطة القطار" عام ١٩٥٩، ويكشف كازاكوف عن اهتمام خاص بالطبيعة يعيد إلى الأذهان الصفحات الرائعة التي خطها تورجنيف. مع ذلك فإن هم كازاكوف الأول هو ذلك الجزء الواعي من الطبيعة أي الإنسان.

وفى رائعته "كان بكاؤك فى الحلم مريراً" سيرتطم القارى بعنف بكل ما هو مؤلم فى حقيقة ميلاد الإنسان وموته. هذه القصة تدفعك بالقدرة على التقاط التفاصيل والدقة المذهلة فى وصفها إلى تذكر قطع الحرير الصغيرة التى يزخرفون فوقها مدينة كاملة بأعمدتها ونسائها وعرباتها، فتنظر إليها مندهشاً: كيف يمكن الاحتفاظ بذلك العالم المنمنم حياً ومكثفاً إلى هذه الدرجة؟ وما الذى قاد بطل هذه القصة تحديداً إلى الانتحار؟ ومن أين يتدفق كل هذا الحزن وكل هذه الشاعرية؟

ذات يوم قال أبو طالب غفوروف وهو شاعر داغستانى كبير: "لا تطلق رصاص مسدسك على الماضى، لكى لا يفتح المستقبل عليك نيران مدافعه". وقد أثبتت القصص والقصائد التى ظلت ممنوعة لسنوات طويلة أنها قادرة على البقاء أبعد من البشر، ومن الدول، لأنها تختزن أجمل ما فى الحياة: الأحلام.

د. أحمد الخميسى.

❖ رائحة الخبز ❖

■ يـوري كازاكـوف

وصلتهم البرقية فى الأول من يناير. كانت دوسيا فى المطبخ حينذاك، فاتجه زوجها ليفتح باب الشقة: فى ملابسه الداخلية، مخدراً من جرعة الخمر الصباحية، لا يستطيع أن يقاوم التثاؤب، وقع باستلام البرقية وهو يفكر: ممن يمكن أن تكون هذه التهنئة؟. وهكذا، وهو يتثاءب انتهى من قراءة تلك البرقية القصيرة التى تعزيه فى وفاة والدة دوسيا: العجوز التى تناهز السبعين فى القرية النائية.

"ليس هذا وقتها!" - فكر مفزوعاً، ونادى زوجته. لم تبك دوسيا، فقط أصبح لونها شاحباً قليلاً، واتجهت بعد ذلك إلى الغرفة عدلت من وضع المفرش على المنضدة وجلست. وألقى زوجها نظرة زائغة على بقايا الخمر فى الزجاجة القائمة على المنضدة، وصب لنفسه وعب. ثم فكر، وصب لدوسيا كأساً. قال لها:

- اشربى! يخرب بيت رأسى سينفجر. أوه.. أوه. سنلحقها جميعاً. ماذا ستفعلين؟ هل ستذهبين إلى القرية؟

لزمت دوسيا الصمت، ومسحت المفرش بباطن يدها، ثم تجرعت الكأس، واتجهت إلى السرير كالعمياء، ورقدت. وبعد دقيقة صمت تمتمت:

- لا أدرى.

اقترب زوجها منها وتطلع إلى بدنها المكور الممتلئ.

- طيب.. ما العمل؟ ما الذى يسعنا عمله! - لم يدر بعد ذلك ما الذى يمكن قوله، فعاد إلى المنضدة وصب لنفسه كأساً أخرى: - لها الجنة. مسيرنا كلنا إلى هناك.

ظلت دوسيا طيلة اليوم تتمشى هامدة داخل الشقة. رأسها مصدع، ولم تقم بزيارة من ينتظرونها. ساورتها الرغبة فى البكاء، ولكنها لم تستطع البكاء، كانت ببساطة حزينة فحسب. لم تر دوسيا أمها منذ خمس عشرة سنة، وكانت قد غادرت القرية قبل ذلك ولم تعد تتذكر أبداً - تقريباً - شيئاً من حياتها الماضية. وعندما كانت تتذكر شيئاً كان ذلك على الأغلب من طفولتها المبكرة، أو لحظات مرافقة الشباب لها من نادى القرية إلى البيت عندما كانت شابة.

أخذت دوسيا تقلب الصور القديمة، ومن جديد لم تستطع البكاء: كان وجه أمها فى كل الصور متوتراً وغريباً، وعيناها جاحظتين، وذراعاها الثقيلتان الغامقتان مسدلتين إلى جنبيها.

فى الليل تحدثت دوسيا طويلاً مع زوجها، وهى راقدة على السرير، ثم قالت له قرب النهاية:

- لن أسافر إلى القرية! إلى أين أذهب؟ الجو بارد هناك الآن.. أما الأشياء البالية الباقية هناك فالأرجح أن أقاربنا قد تخاطفوها. أقاربنا هناك كثيرون بما يكفى. كلا.. لن أسافر!

- ٢ -

انقضى الشتاء، ونسيت دوسيا أمها. وكان زوجها يعمل بشكل جيد، وانغمس الاثنان فى غبطة، وصارت دوسيا أجمل

وأكثر امتلاء. لكن مع حلول شهر مايو تلقت دوسيا خطاباً من ميشا ابن أختها. وكان واضحاً من خط ميشا المائل على الورق أن أحداً من الكبار أملى عليه الخطاب. نقل ميشا لخالته دوسيا التحايا من الأقارب الكثيرين وكتب أن بيت جدته وأشياءها في الحفظ والصون وأنه لابد من حضور دوسيا إلى القرية.

قال لها زوجها:

- سافري! اذهبي. ولا تجهدي نفسك، بيعي كل الأشياء التي ستجدينها هناك بسرعة، وإلا فإن الآخرين سيستخدمونها، أو أن الكلخوز سيضع يده عليها.

وسافرت دوسيا. لم تكن قد سافرت منذ زمن بعيد إلى أي مكان. وكانت المسافة طويلة، فتمكنت كما ينبغي من الاستمتاع بالطريق، وتحدثت وتعرفت إلى كثيرين في القطار. ومع أنها أرسلت برقية إلا أن أحداً لم يكن في استقبالها. واضطرت إلى السير على قدميها، لكنها وجدت متعة في ذلك. كان الطريق مرصوفاً متساوياً امتدت على جانبيه حقول اقليم سمولينسك العزيزة محفوفة عند الأفق بأحراش سماوية اللون.

وبلغت دوسيا قريتها بعد ثلاث ساعات، وتوقفت عند الجسر الجديد المقام فوق النهر وتطلعت أمامها. كبرت القرية بشكل ملحوظ، وانتشرت بعرضها المزارع إلى درجة كان من الصعب معها التعرف إلى القرية. ولم تسترح دوسيا إلى ذلك التغيير. مضت بعد ذلك في الشارع تتفحص وجوه المارة في طريقها، وتحاول أن تخمن من عساهم أن يكونوا. لكنها لم تتعرف إلى وجه أحد. إلا أن الكثيرين تعرفوا عليها، وتوقفوا، وأعربوا عن

دهشتهم لأنها كبرت هكذا.

وسعدت الأخت بقدوم دوسيا، بكت قليلاً ثم هرعت تعد سيماور الشاى. وأخذت دوسيا تخرج الهدايا الصغيرة من حقيبتها. ونظرت الأخت إلى الهدايا ثم سالت دموعها مرة أخرى واحتضنت دوسيا. أما ميشا الصغير فكان جالساً على الكنبة مندهشاً: لم تبكيان؟

وجلست الأختان تحتسيان الشاى، وعلمت دوسيا أن الأقارب قد تقاسموا فيما بينهم الكثير من الأشياء التى تركتها أمها. أختها أخذت الخنزير، والبقرات الثلاث، والماعز، والدجاج. فى البداية تضايقت دوسيا - فى نفسها - ثم نسيت، ولاسيما أن الكثير ما زال موجوداً، وخاصة البيت نفسه. وبعد أن انتهت الأختان من شرب الشاى وشبعتا من الحديث اتجهت الاثنتان إلى البيت لمشاهدته. وكانت الضيعة الصغيرة الملحقة بالبيت محروثة. اندهشت دوسيا، لكن أختها قالت إن الجيران هم الذين حرثوها لكى لا تضيع فرصة غرسها. ولم تجد دوسيا البيت بالوسع الذى تصورته والذى تذكره به. كانت الشبابيك مسمرة بألواح خشبية، ومن الباب تدلى قفل حديدى. ظلت الأخت تحاول طويلاً فتح القفل، ثم تقدمت دوسيا تجرب، ثم أختها مرة أخرى، وتعبت الأختان حتى فتحتا القفل.

كانت الظلمة تعم البيت، والضوء يتسرب بالكاد من الشبابيك عبر الألواح الخشبية، والرطوبة تنشع من جو البيت الذى بدا مهجوراً، إلا أن المكان كان يعبق برائحة الخبز: الرائحة المقربة للنفس منذ الطفولة. ودق قلب دوسيا. وراحت تذرع أرض

الغرفة، تجول فيما حولها بعينيها اللتين أخذتا تعتادان العتمة. كان السقف منخفضاً بطلاء بنى غامق، والصور مازالت معلقة على الجدران، ولكن الأيقونات اختفت ماعدا واحدة، واختفت المفارش المطرزة من فوق المدفأة والصناديق.

عندما صارت دوسيا وحدها فى البيت فتحت أحد الصناديق فانبعث منه عطر أمها. فى الصندوق طويت جونلات قديمة غامقة اللون، وفساتين بلا أكمام ومعطف حائل اللون من صوف الخرفان. أخرجت دوسيا كل هذا، ألقت عليه نظرة، ثم خرجت من البيت ودارت حوله، وحدقت فى الحوش الفارغ، وبدا لها أنها شاهدت كل هذا من زمن بعيد فى حلم ما، وأنها تعود الآن إلى ذلك الحلم.

- ٣ -

تدفق الجيران على دوسيا ما أن سمعوا أنها تبيع لوازم البيت. كانوا يقلبون ويتفحصون كل شىء بدقة، ولكن دوسيا لم تكن تطلب الكثير، ولذلك بيعت الأشياء بسرعة. المهم هو البيت! وعرفت دوسيا بأسعار البيوت، ودهشت، وأحست بالسعادة لارتفاع أثمان البيوت. وعلى الفور وجدت ثلاثة مشترين، اثنين من نفس القرية، والآخر من قرية مجاورة. لكن دوسيا لم تتسرع فى بيع البيت. كانت تخشى أن تكون أمها قد أخفت بعض المال فى مكان ما بالبيت. وفتشت عن ذلك المال ثلاثة أيام متصلة: دقت على الجدران، وتحسست مراتب النوم، وهبطت إلى القبو، وصعدت إلى العلية، لكنها لم تجد شيئاً. وعندما اتفقت دوسيا

مع المشترى على السعر اتجهت إلى إدارة المنطقة، وسجلت عقد البيع فى الشهر العقارى، ثم أودعت المبلغ فى دفتر توفير، وعادت بعد ذلك إلى القرية محملة ببعض الهدايا لأختها، ثم أخذت تهيئ نفسها للسفر إلى موسكو.

عصر ذلك اليوم اتجهت الأخت إلى المزرعة بينما تأهبت دوسيا لزيارة قبر أمها بصحبة ميشا الصغير. كانت السماء مغطاة بغيوم كثيفة تفرقت مع حلول المساء، ما عدا أفق تلك الناحية التى سارت صوبها دوسيا وميشا، فقد ظلت عالقة هناك سلسلة سحب رصاصية متوردة، بعيدة وغائمة كأنها وراء الشمس.

على بعد كيلومترين من القرية التف النهر بشدة فى شكل أنشوطة، وعلى الشط الأيمن المرتفع قامت المدافن كأنما فى قلب شبه جزيرة. فى وقت ما كانت تلك المدافن محاطة بجدار من الطوب الأحمر، وكانوا يدخلونها من بوابة عالية مقوسة، وبعد الحرب استخدموا طوب الجدار المنهار فى البناء، ولسبب ما أبقوا فقط على تلك البوابة، وتفرعت الطرق إلى المدافن من كل ناحية.

فى الطريق استفسرت دوسيا من ميشا - بهدوء ورصانة - عن المدرسة التى يتعلم فيها، وأيام العمل فى الكلخوز، ورئيس الكلخوز، والمحاصيل، إلى أن لاحت معالم المدافن القديمة مضاءة بأحمرار الشمس المنخفضة. وعلى جانبى المدافن حيث ارتفعت الجدران يوماً ما ونمت أشجار الورد البرى، ترامت المقابر القديمة جداً التى فقدت منذ زمن بعيد هيئة المقابر. وغير

بعيد ارتفعت بين الأحراش جدران مطلية حديثاً برزت وسطها شواهد خشبية قصيرة على القبور الجماعية لشهداء الحرب..

وتجنبت دوسيا وميشا المرور من البوابة، وانعطفا يميناً، ثم يساراً. وبين أشجار البتولا المزهرة، والأحراش التى يفوح عبيرها بحدة، بهت لون دوسيا شيئاً فشيئاً، وانفتح فمها قليلاً.

- هذا قبر جدتى.

قال ميشا. وشاهدت دوسيا ركام قبر كساه عشب نادر حاد الطرف برز من الطين الجاف. ورأت دوسيا صليباً خشبياً بلون رمادى مشوب بالزرقة يرتفع فى الجو منحرفاً، لم يعده أحد لموضعه منذ ذلك الشتاء الذى دفنوا فيه الأم. وصار لون دوسيا أقرب إلى البياض، وأحست فجأة كأنها تلقت طعنة خنجر أسفل صدرها فى القلب تماماً. ولطمت روحها كآبة سوداء، فأحست أنها تختنق، وارتجفت، ثم صرخت مهتاجة، ووقعت على الأرض زاحفة على ركبتيها نحو القبر وأجهشت فى بكاء حار وكلمات لا يدرى أحد من أين جاءتها حتى أن ميشا أحس بالفزع. وولولت دوسيا بصوت خفيض:

- آه.. آه.. آه..

ثم سقطت على القبر بوجهها، وغرست أصابعها بعيداً فى الأرض الرطبة:

- يا أمى يا حبيبتى.. يا أمى.. يا من لا مثيل لك.. آه.. لن ألقاك فى هذه الدنيا بعد، لن ألقاك أبداً. أبداً. كيف سأعيش بدونك؟ من الذى سيدللنى؟ من الذى سيطمئننى؟ يا أمى.. يا أمى.. كيف تفعلين هذا؟

وبكى ميشا من الخوف وصاح وهو يجذبها من أطراف كمها:
- خالتى دوسيا.. يا خالتى.

وتحشرج صوت دوسيا، وأخذت تقوس ظهرها، ثم راحت تخبط القبر برأسها. وانطلق ميشا هارباً نحو القرية.

بعد ساعة حينما عمت الظلمة العميقة هرع البعض من القرية إلى دوسيا. ووجدوها راقدة فى نفس المكان لا تعى شيئاً، لم تعد تستطيع البكاء، أو الحديث، أو التفكير، فقط كانت تئن من بين أسنانها التى أطبقت عليها بشدة. وكان وجهها أسود من تراب الأرض مرعباً.

أوقفوها، ودلكوا لها صدغيها، وأخذوا يطمئنونها، يقنعونها، وساقوها إلى البيت، ولم تكن تدرك شيئاً مما حولها، كانت تتطلع إلى المحيطين بها بعينين كبيرتين متورمتين، وبدا لها أن الحياة ليل. وعندما أوصلوها إلى أختها فى البيت مشت حتى السرير بالكاد وتهاوت فوقه ونامت على الفور.

فى اليوم التالى عندما تأهبت دوسيا للسفر إلى موسكو، احتست الشاى مع أختها عند الوداع. وكانت مرحة، وحكت عن شقتها الرائعة فى موسكو، ووسائل الراحة المتوفرة بها.

هكذا سافرت دوسيا مرحة، ورصينة، كما أنها منحت ميشا عشرة روبلات.

بعد أسبوعين فتحوا بيت الأم العجوز، مسحوا الأرض، ونقلوا الأثاث إليه.. وأخذ أناس جدد يعيشون هناك ■

□□□

❖ كان بكاؤك في الحلم مريراً ❖

■ يـوري كازاكـوف

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة.

إلى جنب بيتنا، وقفتُ مع صديقي نتبادل الحديث، بينما تمشيتَ أنت قربنا، وسط أعشاب وزهور تطول كتفيك. وحيناً كنتَ تقعد القرفصاء لحظة، ترنو إلى صنوبرة دقيقة، أو عود عشب، وقد لانت على وجهك نصف بسمة لا تفارقه، نصف بسمة لم تفصح عن مكنونها، حاولتُ كثيراً أن أدرك مغزاها، لكن بلا جدوى.

وبين وقت وآخر، كان كلبنا "تشيف" يركض نحونا، فلما أتعبه الجري بين أحراش التوت توقف بين ذراعيك وقد حاد عن مواجهتك قليلا، ثم شب بكتفيه نحوك كذئب، شاخصاً إليك بعينين قهوائيتي اللون، متوسلاً إليك وهو يلوي رقبته بجهد أن ترمقه بنظرة رقيقة. وكان - إذا تطلعتَ إليه - يجثو في الحال على قائمتيه الأماميتين، ويهز ذيله القصير في الهواء وهو ينبح نباحاً مكتوماً. ولا أدري لماذا كنتَ تتهيب "تشيف"، فحين وقف قبالتك، درتَ من حوله بحذر، واتجهتَ إليَّ، وأحطتَ ركبتي بذراعيك، ثم رفعتَ رأسك متطلعاً نحوي بعينين زرقاوين تعكسان السماء، وتمتمتَ برقة وفرحة كأنك وصلت لتوك من مكان بعيد: "بابا".

وحين التفت يداك الصغيرتان حول ساقي شعرت بعذوبة من الألم تغمرني.

وبدا أن صديقي قد ارتجف لأنك طوقتني هكذا فجأة، فانقطع

عن الحديث بغتة، ومد يده وداعب بأصابعه شعر رأسك المهوش، وتأملك برهة..

الآن، لن يرمقك ذاك الصديق بنظرته الحانية، ولن يخاطبك أبداً، لأنه لم يعد موجوداً فى هذه الدنيا بعد، أنت أيضاً لن تتذكره بطبيعة الحال، كما أنك لن تتذكر أشياء أخرى كثيرة. لقد أطلق النار على نفسه فى نهاية الخريف عند بدايات سقوط الثلوج الأولى.. ترى هل شاهدها؟. هل ألقى نظرة من خلال زجاج الشرفة على المنطقة التى امتدت أمامه وقد أصابها الصمم فجأة؟ أم أنه أطلق النار على نفسه قبل ذلك.. فى المساء؟. وهل تساقطت الثلوج فى اليوم السابق لما جرى، أم أن الأرض كانت سوداء حين هبط من قطار الضواحى، واتخذ طريقه إلى بيته كماض إلى ساحة إعدامه؟.

حقاً، ألا يسوقنا هبوط الثلوج الأولى إلى روح السكينة ومزاج الكآبة؟، ويسلمنا إلى وجوم شوارد الأفكار المتأنية الراكدة؟

متى؟ فى أية دقيقة؟ تملكته تلك الفكرة المؤسفة، المروعة، ثم راحت تطارده؟ الأغلب أن ذلك الخاطر قد طرأ له منذ زمن بعيد. أكثر من مرة صارحنى بالوحشة التى تنتابه مع بداية الربيع ونهاية الخريف، حينما يكون وحده بداره الريفية، فينزع إلى وضع حد لكل شىء، دفعة واحدة بإطلاق النار على نفسه.. ولكن من الذى لا تفلت منه مثل هذه الأحاديث لحظة الوحشة؟

لقد اعتصرته ليال مرهقة، لم يذق فيها طعم النوم، وقد بدا له طيلة الوقت أن أحداً يتسلل إلى البيت، يشيع فيه أنفاس البرودة، مبتغياً أن يسلبه لبه. كان الموت قد اندس إليه.

رجاني ذات يوم: أستحلفك بالله أن تعطيني بعض الطلقات النارية لقد استنفدت ما كان عندي، ويخيل لي أن أحداً يجوس في البيت ليلاً.. بينما يسود البيت هدوء مطبق كأني بين المدافن.. أتفهم قصدي؟ الآن.. هل ستعطيني؟

أعطيته ست طلقات، وقلت له ضاحكاً: لعلها تكفيك.

كان لا يكف عن العمل المتصل، الدءوب، وكانت حياته المتقدة بالنشاط، تجعلني أشعر بالتقصير دائماً. وكنت إذا زرته في أي وقت تجده مشغولاً بعمله، فإن كان الوقت صيفاً تدخل إلى بيته من ناحية الشرفة، وترفع رأسك متجهاً ببصرك إلى علية البيت، نحو النافذة المفتوحة، ثم تنادي دون زعيق: "ميتيا". وسرعان ما يوافيك صوته: "أها". ويلوح وجهه في النافذة، ويظل دقيقة كاملة يتأملك بنظرة غائبة وراء ضباب، ثم تبدو على وجهه بسمة واهنة ويشير بيده النحيفة قائلاً: "الآن"، ويهبط من الدور العلوي إلى الدور الأرضي حيث تمتد شرفة البيت، ويطل عليك مرتدياً "البلوفر" السميك، وتحس أنه يتنفس بهدوء وعمق خاص عقب فترة طويلة من العمل، فترمقه ببهجة بل وبغبطة، كما تحس وأنت تنظر إلى فرس قوي مفعم بالحيوية، تتبادل قوائمه طرق الأرض بنفاد صبره، ليطلقوا له العنان فيعدو.

كان يقول لي، إذا أصابني مرض أو انتابني اكتئاب:

ـ ما هذا؟ لماذا تنساق لنفسك هكذا؟ اتخذني مثالا.. فأنا لا أكف عن السباحة في نهر "ياسنوشكا" حتى في أواخر الخريف، فلماذا أجدك راقداً أو جالساً هكذا طيلة الوقت؟. انهض وقم ببعض التمرينات الرياضية..

فى منتصف شهر أكتوبر التقيت به للمرة الأخيرة. وكان يوماً مشمساً بديعاً، جاءنى أنيقاً للغاية كعادته دوماً، معتمراً غطاء رأس من وبر منفوش، لكن شيئاً فى وجهه كان منكسراً وحزيناً. ومع ذلك، فقد تدفقت أحاديثنا فى البداية بصورة حية، وخضنا فى نقاش لا أذكر باعثه عن البوذية، وتكلمنا فى أن الوقت قد حان بالفعل للبدء فى كتابة الروايات الكبيرة، وأن السعادة الوحيدة الممكنة تتمثل فى العمل اليومى وحده، وهو أمر يصبح مستطاعاً فقط حين تعكف على كتابة عمل كبير.

رافقته وهو ينصرف.

وفجأة نشج بالبكاء، وأشاح بوجهه عنى. وبعد أن هدأ قليلاً غمغم قائلاً:

- حينما كنت هكذا، مثل طفلك آليوشا، بدا لى أن السماء عالية هذا العلو، زرقاء هذه الزرقة لكنها جعلت تبهت فيما بعد، لكن ذلك بسبب تقدمى فى السن.. أليس كذلك؟ فهذه الشمس هى ذاتها التى كانت تشرق فيما مضى.. ألست محقاً؟ هل تدرى أنى أخشى "أبرامتسيفا"(١)! أخشى تلك الضاحية، فكلما عشت بها أكثر زاد تعلقى بها، ولكن.. أليس من الإثم أن يتعلق الإنسان بمكان واحد إلى هذه الدرجة؟ لقد رفعت "آليوشا" على كتفيك.. ألم تفعل؟ أنا أيضا حملتُ أطفالى صغاراً، وحين اشتد عودهم ركبت الدراجات معهم رافقتهم، قاصدين ما يعجبنا من أمكنة فى الغابة الواسعة، وكنت أحادثهم طوال الوقت، أكلمهم

---

(١) "أبرامتسيفا": ضاحية قرب مدينة "زاجورسك"، وكانت فى أواخر القرن التاسع عشر مركزاً هاما للفنانين الروس. (المترجم).

عن "أبرامتسيفا"، وعن أرض "رادانيجسكى"(٢)، متمنياً أن يتيموا بهذه الأرض، فهى إن شئت الحقيقة موطنهم، وأرضهم الأم!

ويبدو أن نبات الخردل البازغ عند حواشى الطريق قد استرعى انتباهه بشدة، فغير مجرى الحديث قائلاً:

- آه.. انظر إلى هناك، انظر.. أى خردل أبيض سيظهر عما قريب!

وطفق يُسر إلىَّ بمشاريع عمله التى أعدها للشتاء. وكانت السماء زرقاء إلى درجة مذهلة، وضاءت أوراق الخردل البيض بلون شمسى، ذهبى كثيف. توادعنا بمودة خاصة، وإحساس حميم بالصداقة.

***

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، عند شاطىء البحر فى "جاجرى"(٣)، تقصف رعد السماء، ودوى، وكأنه يقصدنى، وكأن الطلقة الليلية التى دوت فى "أبرامتسيفا" قد حلقت فى سماء روسيا كلها، ودوّمت حتى أدركتنى عند شاطىء البحر. حينذاك - تماماً كما يعرض الآن وأنا أكتب هذه الصفحات - كان الموج يلطم الشاطىء، والبحر يزفر فى الظلمة رائحته من الأعماق، وهناك

---

(٢) "رادانيجيسكى": مشتقة من "رادانيج" اسم المدينة الروسية لقديمة التى ظهرت ما بين القرن ١٤ - ١٦، ثم اندثرت، وقامت وتوسعت مكانها مدينة "زاجورسك" التى تضم عدداً من أشهر الكنائس الروسية وغيرها من الآثار المعمارية. (المترجم).

(٣) "جاجرى": من مدن جيورجيا، ميناء يطل على البحر الأسود. (المترجم).

بعيداً ناحية اليمين، التفت تدور مع قوس الخليج سلسلة من الفوانيس المتلألئة المنيرة.

كنتَ أنتَ قد بلغتَ الخامسة، جلستَ إلى جانبى عند الشاطىء المعتم قرب وجيب الأمواج التى غيبتها الظلمة، ننصت إلى وشوشتها وإلى طقطقة الحصى البليل وهو يثب مع جزر الموج المنحسر، ولا أدرى فيمَ كنتَ تفكر، كنتَ جالساً صامتاً، لا أعرف لماذا. أما أنا، فقد خيل لى أننى أمضى هناك.. فى "أبرامتسيفا"، أمشى من محطة القطار قاصداً بيته، ولكن عبر طريق آخر غير الذى كنت أقطعه عادة، وتلاشى البحر من أمامى وتبددت جبال الليل من حولى، وقدرتُ فى الظلمة - من الأنوار التى تضىء بعيداً - موقع البيوت القليلة. سرت فى طريق مرصوف بقطع الزلط، كسته الثلوج الأولى. وحين التفت خلفى شاهدت آثار قدميى، سوداء، مطبوعة بدقة على ثلج منطفىء البياض، وتحركت متجهاً يساراً، وأخذت أخطو بمحاذاة بحيرة كابية المياه، وإن كانت حوافها منيرة. ووجدتنى أتوغل فى عتمة من أشجار الشربين، واستدرت إلى الناحية اليمنى فواجهنى درب مسدود، حدقت قبالى مباشرة، وشاهدت داره الريفية المحمية بأشجار الشربين نوافذها مضاءة.

ولكن.. متى وقع ذلك؟ مساء.. أم ليلاً.. متى؟

تمنيتُ - لا أدرى لماذا - أن تحل باكورة الفجر الخفيف لليل نوفمبر. أنه أوانها فيه ترقب تباشير الصبح من الثلج الذى يزداد بياضاً، والشجر الذى يتحدد ويبرز من لجة الغبشة الشاملة.

ها أنا أصل إلى بيته المطوق بسور دائرى وأفتح الباب

الخشبى الصغير بالسور، ثم أرتقى درجات السلم، لأقف فى الشرفة الفسيحة، وأرى...

سألنى ذات يوم: "أسمع.. هل تعتبر طلقات الرش ذخيرة قوية؟ أقصد إذا أطلقتها من مسافة قريبة؟".

أجبته: "بالطبع! فلو أنك - من على بعد نصف متر - صوبت على شجرة حور صغيرة، ولنقل أن ساقها بعرض ساعد اليد، فإن طلقة الرش ستجز الشجرة كحد الموسى".

مازالت تعذبنى إلى الآن ذات الفكرة: ما الذى كنت سأفعله، لو أننى شاهدته حينذاك وهو جالس فى الشرفة والبندقية مرتكزة إلى الأرض بين قدميه وفوهتها نحو وجهه، بينما إصبع إحدى قدميه على زنادها؟. ترى هل كنت سأحطم الباب على الفور وأكسر الزجاج وأنا أصرخ بكل صوتى إلى أبعد مدى فى المنطقة؟ أم أننى كنت سأحول بصرى عنه من شدة الرعب ممسكاً أنفاسى، على أمل أنه إذا لم يحس بوجودى فربما يعيد النظر - من تلقاء نفسه - فيما قرره؟ فينحى البندقية جانباً، وبحذر يؤمن بإبهامه زنادها وأخيراً يتنفس الصعداء، يتنفس بعمق.. بعمق كأنه يفيق من كابوس، ثم يهدأ.. وينتعل خفيه..؟

ولو أننى كسرت الباب مهشماً زجاجه واندفعت صوبه صارخاً.. أكان سيلقى بالبندقية جانباً ويثب نحوى سعيداً؟ أم أنه على العكس كان سيعجل بالضغط بإصبع قدمه على الزناد وهو يحدجنى بعينين ميتتين تنطقان بالكراهية؟

إلى الآن مازالت روحى تحلق صوب بيته فى تلك الليلة، تحوم باذلة أقصى قدرة متلهفة على التوحد بروحه، ماضية وراء كل

حركة يقوم بها، معتصرة كل جهدها لتخمن ما يدور برأسه.. ولكن بلا جدوى، فتئوب إليَّ من جديد لقد بلغ داره الريفية فى وقت متأخر من المساء، فماذا فعل فى الساعات الأخيرة من عمره؟ لعله - قبل كل شيء - قد بدل ملابسه، وعلق بذلته فى الصوان، علقها لا كيفما اتفق، بل على نحو مرتب كما اعتاد.. ثم خرج بعد ذلك ليأتى بحطب لتسخين المدفأة.. وتناول تفاحة ليأكلها. لكن هل استولى عليه ذلك القرار المهلك فى الحال؟ لا أظن. فكيف لمن اتخذ قراراً بالانتحار أن يهتم بتسخين المدفأة وأكل تفاحة؟ كلا.. إنه يتراجع عن تسخين المدفأة بغتة، ويستلقى راقداً، وفى تلك اللحظة على الأرجح يتخذ قراره.

ترى ما هى الصور التى تراءت له؟ هل استغرقته ذكرياته فى الدقائق الأخيرة؟ أم أنه لم يستسلم لها وشرع يعد نفسه فحسب لما قرر الإقدام عليه؟ هل بكى؟ أم نهض واقفاً، واستحم، ارتدى ملابس داخلية نظيفة، وكانت البندقية معلقة على الجدار، رفعها من مكانها، وأحس وهو يحملها بثقلها البارد وجمود الماسورتين الفولاذيتين، ورقد بيت الطلقات بطواعية فى راحة يده اليسرى، وتحت ضغط إبهام يده اليمنى تحرك لسان الترباس ببطء نحو اليمين، وانقصمت البندقية إلى نصفين، وعند موضع القصم كشفت عن فتحتى الماسورتين.. وانزلقت رصاصة واحدة فى إحدى الماسورتين، انزلقت بنعومة ويسر. الرصاص الذى أعطيته له. أضاء النور فى أرجاء الدار كلها، وأضاء نور الشرفة، جلس على مقعد وخلع خفه من قدمه اليمنى، ثم فك أمان الزناد، فكه بطقة رنت فى الصمت المطبق، وأولج طرف البندقية فى فمه،

ضغط عليها بأسنانه فأحس ملمس الماسورتين وطعمهما المعدنى، البارد، الزلق..

ترى هل خلع فى الحال خفه بعد أن جلس على المقعد؟ أم أنه ظل واقفاً طيلة الليل لاصقاً جبينه بالزجاج الغائم من الدمع والشهيق؟ أم أنه قام بجولة أخيرة فى قطعة الأرض الصغيرة الملتفة حول الدار، مودعاً الأشجار، ونهر "ياسنوشكا"، والسماء، ومقعده الخاص فى الحمام العزيز المبنى خارج الدار؟ ترى هل سقط إصبع قدمه على الزناد فوراً؟ أم أنه لقلة خبرته أخطأ الزناد، وظل بعد ذلك لفترة طويلة يلتقط أنفاسه وهو يمسح عرقه البارد.. ثم راح يستجمع قواه مرة أخرى متأهباً لمحاولة ثانية؟ هل أغمض عينيه حينما أطلق النار؟ أم أنه تطلع إلى شيء ما بعينين مفتوحتين على وسعهما حتى ومضة العقل الأخيرة؟

ليس الضعف، لا، لكنها الصلابة، والقدرة العظيمة على الحياة هى ما يحتاجه المرء ليبتر حياته بتراً بتلك الطريقة. لكن ما الذى دفعه إلى ذلك؟ ماذا؟ أفكر فلا أجد إجابة. هل انطوت حياته الحافلة بالعمل والحيوية على عذاب لم أكن أعلم به؟ وإن كان، فهل المعذبون من حولنا قلة؟ كلا.. لا يلجأ الإنسان إلى الرصاص لذلك السبب. هل كان محتماً عليه منذ الميلاد ذلك القضاء المميت؟ وهل حقاً أن كل إنسان موسوم بقدر لا نراه، يوجه مجرى حياتنا منذ البداية وإلى النهاية؟

وجاست روحى فى ظلمة.

***

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة كما قلتُ من قبل، وكان لا

يزال حياً بيننا، وكان يوماً مشمساً ساطعاً، يوماً مديداً.. مديداً، من أيام الصيف التي نتذكرها بعد انقضاء سنوات فتبدو لنا أياماً بلا نهاية. ودعني في ذلك اليوم، ومرة أخرى داعب بأصابعه شعر رأسك، ومست شفتاه - من بين شاربه وذقنه - جبينك، مسته برقة، ودغدغتك قبلتُه فأُغرقتَ في ضحك سعيد. وانصرف "ميتيا" قاصداً داره.

وانطلقنا، أنا وأنت، وأخذت معي تفاحة كبيرة للطريق، وبدأنا رحلتنا التي تمتعنا منذ الصباح بتخيل مسراتها المقبلة. وعندما رأى "تشيف" أننا نستعد للحركة، ركض مقترباً منا ثم جرى على الفور أمامنا يسبقنا وكاد أن يوقعك على قدميك، ففرد أذنيه في الهواء ترتجفان رجفة جناحي فراشة، ثم وثب عالياً إلى الأمام، وتوارى عن أعيننا بعيداً في الغابة.

ياه.. يا له من طريق امتد أمامنا طويلاً، كيلو متراً بأكمله تقريباً، مضمراً لنا المتع الحلوة، ورغم أنك مشيت في هذه السكة من قبل، ووطأتها أكثر من مرة، فتعرفت إلى بعض جوانبها، لكن.. هل أن وقتاً يشبه وقتاً آخر؟ وهل أن ساعة من الزمان تشبه الأخرى؟ ففي سيرنا، غامت الدنيا تارة وتارة أخرى أشمست، مرة تشبعت بالندى، ومرة تلبدت سماؤها كلها بالسحب، وحيناً آخر زأرت مدحرجة رعدها، فهطل رذاذها، وانعقدت خيوط الماء الدقيقة الجارية خرزات تنتظم عقوداً على الفروع الجافة النحيلة لشجر الشربين، وغسل الماء حذاءك الأحمر فالتمع بلطف، وأعتمت أرض الممشى بلون زيتي غامق منطفيء، ودفعة كانت الريح تهب فتدمدم أشجار الحور، وتغمغم

قمم البتولا والشربين، طوراً كانت صباحاً، وطوراً آخر منتصف نهار، وقتاً برداً، ووقتاً حراً، لم يكن هناك يوم واحد يماثل الآخر، ولا ساعة، ولا شجيرة.. لا شيء.

في ذلك اليوم، كانت السماء زرقاء صافية، زرقة هادئة شاحبة، ليست تلك الزرقة النفاذة التي تسيل جداول صوب أعيننا في أوائل الربيع، أو تلك التي ترجف أرواحنا حين تنفذ من فرجة في السحب المنخفضة عند أواخر الخريف. وكنتَ في ذلك اليوم مرتدياً فانلة ليمونية، وسروالاً أحمر، قدماك في صندل بني، يطل منه جورب أصفر. وكانت ركبتاك مخدوشتين، وقد بدت ذراعاك بيضاوين، وقدماك أيضاً، وكتفاك.. أما عيناك الواسعتان، الرماديتان بزرقة، المحاطتان بالنمش الدقيق، فقد ازدادتا زرقة وإعتاماً لا أدري لماذا.

تركنا مدخل البيت خلف ظهرينا، وسرنا نحو الباب الخلفي الصغير. سرنا أول الأمر في الممر الضيق الذي غارت بقع الظلال في أرضه ملاصقة لقطع الشمس، وكنا نتخطى جذور شجر الشربين، فتنثني أوراق الجذوع مرنة تحت أقدامنا. وفجأة توقفت في مكانك كأنما تسمرت ورحتَ تتطلع إلى ما حولك، وعلى الفور أدركتُ أنك تبحث عن العصا.. العصا التي لم تكن تتصور بدونها أية نزهة. وبحثتُ في الممر حتى وجدت لك عوداً من شجرة جوز فقصمته، وناولتك نصفه: العصا. وغضضتَ بصرك فرحاً لأنني خمنتُ أمنيتك، وأخذتَ العصا مني ومددت الخطو أمامي وأنت تلامس بطرفها جذوع الأشجار الداخلة إلى أرض الممر، وأوراق السرخس الطالعة ملتفة كآلة الكمان ورطبة

من الظلال.

أحنيتُ رأسي أتابعك ببصرى، وكنت ألمح قدميك الصغيرتين وهما تتبادلان الخطو إلى الأمام، وكنت أرى رقبتك النحيلة وخصلات شعرك الفضى التى كست رقبتك من الخلف، وذؤابة شعرك المنفوشة، وحاولت أن أستعيد صورتى وأنا صغير، فتألبت علىَّ الذكريات على الفور.. لكن.. مهما تكن صورى المستعادة من أبعد فترات الطفولة، كنتُ كيفما تذكرت نفسى أرانى أكبر منك وأنت تمشى الآن إلى جوارى.

مشينا حتى انفسح أمام بصرنا فجأة خلاء واسع عن يسارنا، كاشفاً تحته عن واد صغير، ترقرق فيه نهر "ياسنوشكا"، وانبعثت من المروج الساخنة رائحةٌ دافئةٌ مستفيضةٌ فى روح الغابة التى طوقتنا من كل ناحية..

رددتُ بصورة تلقائية مطلع أغنية للأطفال:

- "آليوشا.. رجله بدرى..".

واستجبتَ ببساطة فى الحال:

- "ماشيه على السكة تجرى".

وأدركتُ وأنا أرى ارتعاشة أذنيك الشفافتين أنك ابتسمت.

لقد سعيتُ أنا أيضاً، فى وقت مضى، مثلك الآن هكذا، فى بحبوحة من الزمن، وكان صيف حينذاك، وكانت الشمس حامية، والنسيم يدفع أمامه شذى كرائحة هذه المروج.. كان ذلك بإحدى المناطق فى ضواحى موسكو. وكنتُ أقف فى حقل واسع انقسم الناس فيه إلى قسمين، فوقفت جماعة منهم عند طرف حقل، حيث امتدت خلفه فى العمق غابة ليست كثيفة من أشجار

البتولا، وتألفت تلك الجماعة من النسوة والأطفال وحدهم، وكانت غالبية النساء يبكين وهن يجففن دموعهن بمناديل الرأس الحمراء. وفى الطرف المواجه لنا من الحقل وقف فريق من الرجال صفاً واحداً لاح خلفهم مرتفع لمزلقان سكة حديدية، وبدت فوق المزلقان عربات شحن بنية داكنة من قطار انطلقت صفارته وتصاعد أمامه دخانه الأسود عالياً بعيداً.. وكانت جفنة من الرجال بالقمصان العسكرية يروحون ويجيئون بيننا وبين صف الواقفين..

كانت أمى تبكى مع النساء، وتجفف دمعها الجارى، وكانت تزز - طوال الوقت - عينيها ضعيفتى البصر وتسألنى: "يا ابنى.. هل ترى أباك؟ هل لمحته؟ قل لى أين يقف. على الأقل أشر لى فى أية ناحية هو..". قلت لها: "نعم.. أنى أراه يا أمى"، وبالفعل كنت قد شاهدته هناك بين الرجال فى الجانب الأيمن من الصف، ورآنا هو الآخر فابتسم، وكان يلوح لنا بيده من وقت لآخر، لكنى لم أدرك ما الذى يمنعه من التقدم للقائنا، أو يمنعنا نحن من المضى إليه.

وشعرتُ بغتة بتيار من القلق يسرى بيننا، وأمسكتْ بضعة من الأولاد والبنات بربطات صغيرة، وشرعوا وهم مترددون، يعدون عبر المروج الواسعة إلى الطرف الآخر من الحقل. وبتعجل دفعت أمى إلىّ بربطة ثقيلة من الملابس والمعلبات، ولكزتنى، وصوتها المرتفع يلاحقنى: "أسرع إلى أبيك يا ابنى واعطه الربطة، قبله وقل له أننا ننتظر عودته". وكانت الوقفة الطويلة فى الحر قد أرهقتنى، فسعدت بتلك المهمة وجريتُ مع الأولاد

الآخرين..

وتلألأت ركب الأطفال العارية بضوء الشمس المتقطع وأنا أعدو بينهم فى الحقل، وكانت البهجة تخز قلبى لأن أبى - أخيراً - سيضمنى إلى صدره، ويرفعنى بذراعيه ليقبلنى، ولأننى سأستمع من جديد إلى صوته، وأنشق رائحة دخانه الهادئة. لم أكن قد رأيت أبى منذ زمن بعيد، بعيد، حتى أن ذكرياتى القليلة عنه كانت كأنما اكتست بغلالة من الرماد الرقيق، وأصبحت إحساساً بالشفقة على نفسي، لأننى وحيد من دون كفيه الغليظتين، الخشنتين، وحيد من دون صوته، ونظراته التى كان يلقيها على نفسه فى المرآة. كنت أعدو وأنا أتخطف النظر تارة إلى الأرض التى تجرى من بين قدمىَّ، وتارة إلى وجه أبى الذى ميزتُ فيه شامة صدغه.. واتضح لى وجه أبى وقد حطت عليه التعاسة فجأة، ولاحظت أنه كلما قلت المسافة بينى وبين الصف، زاد قلق الرجال الواقفين هناك ومن بينهم أبى..

انتهى الممر الضيق، وخرجنا من الباب الخشبى الصغير إلى الغابة الواسعة، واستدرنا يميناً صوب البناء الدائرى ذى القبة الخرسانية، وكان جارنا قد شرع يبنيه فى وقت ما لكنه لم يتمه، فانسحب اللون الرمادى على البناء بأكمله، بقبته، وأعمدته، وطوقته أشجار الحور والشربين متشابكة ملتفة، وكنتَ لمدة طويلة تستمتع بتقليب النظر فيها، بانبهار..

عن يسارنا، ترقرقت مياه نهر "ياسنوشكا" خيوطاً فوق الحصى، ولم نكن قد رأينا النهر بعد، فقد وارته عنا شجيرات الجوز الكثيفة وأحراش التوت، لكننا كنا نعلم أن هذا الممشى

الذى يقودنا إلى البناء ذى القبة سيمضى بنا إلى نقرة صغيرة معتمة من مياه النهر، تدور فيها وريقات الشجر، ببطء شديد.

من الفرجات فى أعالى الشجر، صبت الشمس علينا أشعتها، متقطعة، فى أعمدة رأسية تقريباً.. وتوهجتْ من ضوء الشمس خيوط عصائر الأشجار متموجة كالعسل على ألحية الشجر، وتناثرت هنا وهناك، حبات فراولة حمراء كقطرات من الدم.. وتزاحمت ترف من حولنا هويشات الباعوض الخفيف، وتنادت طيور حجبتها كثافة الأوراق فى الأشجار، ولاح واختفى فى شعاع شمس سنجاب فر من شجرة لأخرى، وتأرجح الفرع الذى تركه السنجاب من لحظة مهتزاً، وطابت روح سلامية فى كل شىء حولنا.

- أليوشا.. انظر: سنجاب. أتراه؟ إنه يتطلع إليك.

ورفعتَ بصرك لتنظر السنجاب، وأخذتَ تحدق إليه، وأفلتَّ عصاتك من يدك، وكنت دوماً تتركها تسقط من يدك إذا استرعى انتباهك شىء ما. ظللت تُتْبعُ السنجاب بصرك حتى احتجب تماماً، وحينئذ تذكرتَ عصاتك فالتقطتها وانطلقتَ فى السكة من جديد.

من أمامنا، طلع علينا "تشيف" بوثبة عالية فى الهواء كأنه سيرتفع طائراً، وتوقف ورنا إلينا مدة بعينيه العميقتين المسحوبتين كعينى الغزال مستفهماً: هل يواصل ركضه إلى الأمام؟ أم أننا سنرجع فى الاتجاه العكسى، أو نحيد عن الطريق؟ وأشرتُ له دون أن أنبس بحرف، إلى الاتجاه الذى سنمشى فيه، فاستشف الإشارة واندفع راكضاً فى الطريق.

وبعد دقيقة تناهى إلينا نباحه المتهيج يتردد من مكان ثابت لا يتحرك من عنده. إذن فلم يكن "تشيف" يطارد صيداً، لكنه عثر على شيء ما، ولهذا يدعونا لنوافيه بسرعة.

قلت لك: أسمعت؟ عزيزنا "تشيف" وجد شيئاً وينادينا.

ورفعتك لأحملك على ذراعي، حتى أجنبك أشواك الشربين ولكى نصل أسرع إلى "تشيف". ورحنا ندنو من مكان النباح أقرب فأقرب حتى انتهينا إلى شجرة بتولا ضخمة بديعة، كانت تنهض منعزلة فى مرج صغير غشته طحالب صفراء، وحادة الخضرة، وليلكية، وأسفل الشجرة شاهدنا "تشيف" وهو يحاوط قنفذاً ولم يكن ينبح فحسب، بل كان يهر بصوت مكتوم وحار وهو يغص بتأوهاته. وأدهشتنى مرة أخرى حاسة "تشيف"، فأنىّ له وهو يركض فى المشى أن يحس من على بعد ثلاثين متراً عن المشى بوجود قنفذ تحت تلك الشجرة؟

اشتد نباح "تشيف" حين رأى أننا وصلنا إليه، ورأيتُ الطحالب المحدقة بالقنفذ وقد داستها أقدام "تشيف" من كل ناحية. أنزلتك إلى الأرض، وشرعتُ أشد "تشيف" من الطوق المحيط برقبته لأبعده عن القنفذ.. وجلسنا القرفصاء أمام القنفذ المحاصر.

قلت لك: هذا هو القنفذ. كرر: ..قن.. فذ.

ورددتَ: قنفذ. ثم لامسته بطرف عصاتك.

وانتفش القنفذ وقفز من مكانه، فسحبتَ عصاتك بسرعة وفقدتَ توازنك واقعاً على الطحالب.

قلت لك: لا تخف. ولكن لا داعى لأن تلمسه. انظر.. كيف

تقلص القنفذ مثل الكرة ونشر شوكه، لكنه حالما تغادر المكان سيخرج بوزه ويجرى على أشغاله، فهو مثلك يتنزه، بل إن النزهة ضرورية، لأنه ينام الشتاء بأكمله.. الثلوج تسوقه إلى النعاس فينام. هل تذكر الشتاء الماضى؟ أتذكر كيف كنت تجلس فى زلاقتك الخشبية ونحن نجرها بك على الثلوج؟

لم تجبنى على سؤالى، لكنك ابتسمت فحسب، بسمتك الغامضة. يا إلهى.. ما الذى كان بوسعى ألا أعطيه، لكى أدرك فقط، سر بسمتك المبهمة تلك؟ حين تبتسمها وأنت وحدك.. أو عندما تسمعنى بينما أخاطبك؟ أتراك تعى شيئاً أهم وأعمق من كل ما عرفته وخبرته أنا فى الدنيا؟

وتذكرتُ يوم ذهبتُ لأتلقاك من مستشفى الولادة، وكنتَ حينذاك ربطة متماسكة وملفوفة بإحكام، مجرد لفة تناولتها من الممرضة وخيل لى أنها ثقيلة إلى حد ما. ولم أكن قد بلغت باب السيارة بعد، حين شعرت أن داخل تلك اللفة جسماً دافئاً وحياً، أحسست ذلك رغم أن وجهك كان مستوراً بقماشة رقيقة ولم أكن قد شعرت بأنفاسك بعد. فى البيت حررناك من القماط فور وصولنا، وتوقعتُ مما يكتب ويشاع عن المواليد أن أرى وجهاً صغيراً أحمر اللون، لا يبين فيه ملمح من التجاعيد، لكنى لم أبصر لا حمرة ولا تجاعيد. كان وجهك صافياً ومضيئاً، وتحركتْ متدافعة قدماك ويداك الدقيقة بشكل مذهل، وفتحتَ عينيك الواسعتين، فبان لونهما السماوى الضارب إلى الرمادى، فتحتهما وتطلعت إلينا بأهمية. كنت آية واضحة بأكملك، لولا الشريط الطبى الملصق بسرتك.

سرعان ما قمطوك من جديد، وأطعموك، وأرقدوك لتنام. وانتقلنا جميعاً إلى المطبخ فجلسنا هناك، وانهمكت النساء وهن يشربن الشاى فى ثرثرة بهيجة بشأن القماش الذى يفرش تحت الطفل، وأفضل الطرق لتعقيم لبن الرضاعة، وإعداد الحمام، وغير ذلك. ولم تقر لى جلسة، فكنت أنهض من وقت لآخر وأتوجه إلى غرفتك، أجلس بجوار سريرك وأتملى وجهك طويلاً. فى المرة الثالثة أو الرابعة عندما قصدتُ غرفتك وجلستُ قربك، رأيتك فجأة تبتسم أثناء نومك ووجهك يختلج..

ما معنى بسمتك تلك؟ أهى من أحلام طافت بعينيك؟ لكن أية أحلام كان لك أن تراها؟ وأى شىء كان لك أن تعرفه؟ وكيف للأحلام أن تراودك؟ إلى أين ساقتك أفكارك حينذاك؟ أو كانت لك أفكار؟ لم تكن بسمتك فقط، إنما ضاء وجهك كاملاً بتعبير رفيع عن أرقى درجة من المعرفة، وشفتْ فوقه سحابات رقيقة وهو يصير كل لحظة إلى وجه آخر، غير ما كانه، ومع ذلك لم ينطفىء ولم يتحول انسجامه العام لحظة.

فى أوقات صحوك، سواء أكنتَ تبكى أم تضحك، أم تتطلع صامتاً إلى اللعب المعلقة إلى حافة سريرك، لم يكن وجهك فى تلك الأثناء يستنير بذلك التعبير الذى استفاض فيه وأنت نائم فأذهلنى وجعلنى أمسك أنفاسى مفكراً: ما الذى يحدث لك؟

فيما بعد، قالت لى أمى: "يبتسم الوليد هكذا، لأن الملائكة تلاطفه".

والآن، ونحن جالسان القرفصاء نتأمل القنفذ، أجبتنى عن سؤالى ببسمتك المبهمة، لم تقل شيئاً، وهكذا لم أعرف إن كنتَ

تذكر ذلك الشتاء أم أنك لا تذكره؟ وكان شتاؤك الأول الذى انصرم فى "أبرامتسيفا" شتاءاً جميلاً، تساقطت ثلوجه وفيرة أثناء الليل، وأضاءت شمسه فى النهار بلون وردى مشع، حتى صارت سماؤه وردية، واكتست أشجار البتولا وبرة من قطرات الندى، تجمدت نقطاً ثلجية. وكنا نخرج بك لتستنشق هواء الثلوج النقى، فتنتعل حذاءك الشتوى، وترتدى معطفاً من الفرو سميكاً إلى درجة أن يديك فى قفازيك السميكين كانتا تتباعدان عن جانبيك فى الهواء. وكان لابد، إذا جلست فى الزلاقة، من أن تأخذ معك عصا تمسكها فى يدك طوال الفسحة، ولذلك أسندنا إلى مدخل البيت عدة عصى مختلفة الطول، وكنتَ فى كل مرة نخرجك للفسحة تختار عصا أخرى غير السابقة. كنا نخرج بك من بوابة البيت ومن هناك تبدأ فسحتك المبهجة وتشرع بعصاتك فى رسم الخطوط فوق الثلج، وتناغى نفسك، وتناغى السماء والطيور والشجر، وتناغى حتى هسهسة الثلج المتكسر تحت حديد زلاقتك وتحت أقدامنا. وكان كل ما حولك ينصت إليك، ويفهم غمغماتك، وحدنا نحن لم نكن نفهم ما تقوله، لأنك لم تكن قد تعلمتَ الكلام بعد، وإن كنت تترنم بمختلف الألحان، وكانت كل لا.. لا.. لاتك، وبا.. با.. تك، وفا.. فا.. فاتك تسر إلينا شيئاً واحداً: أنك سعيد. ثم لزمتَ الصمت، فتطلعنا حولنا ورأينا عصاتك واقعة خلفك، هناك بعيداً، فبدت سوداء فوق الثلوج البيضاء، وأنت تغط فى النوم وقد باعدتَ ما بين ذراعيك بينما اشتعل خداك المشدودان حمرة من البرد. وكنا نجر الزلاقة وأنت نائم ساعة وساعتين فلا تصحو أو تفيق، وحتى بعد أن نصل إلى

البيت، كنت تواصل إغفاءك العميق بينما نخلع عنك حذاءك، وملابسك، نفك أزرار ألبستك، ونحررك من الأربطة، ونرقدك فى سريرك وأنت لا تزال نائماً.

حينما أشبعتَ بصرك من القنفذ، نهضنا وعدنا إلى السير فى الممشى من جديد، وسرعان ما بلغنا البناء ذا القبة، وحالما شاهدتَ القبة توقفتَ مكانك ولفظتَ بسرور كعادتك:

ـ قبة.. حو.. وة.. كبـ.. يـ.. لة.

تطلعتَ مدة إلى القبة "الحلوة الكبيرة" من على مسافة، ورددت بنفس النبرة المندهشة "قبة.. كبـ.. يـ.. لة" وكأنها المرة الأولى التى تراها. اقتربنا منها، فَرحتَ تطرق أعمدتها واحداً بعد الآخر بعصاتك، ثم غضضتَ الطرف ناظراً إلى حضن النقرة الصغيرة تحتنا، وفى الحال مددتُ لك يدى، وشرعنا ويدى بيدك ننحدر إلى أسفل الجرف، وحين وصلنا إلى الماء بدا سطح النقرة الصغيرة ثابتاً لا يضطرب، وعلى مرمى البصر ضحل النهر وتناهى إلينا من هناك خرير الماء فى الحصى، ولم يكن جريان الماء مرئياً إلا إذا راقبنا لبرهة ورقة شجر وهى تسبح وتتحرك ببطء إلى الأمام حيث ضحل النهر، ببطء حركة عقرب الدقائق فى الساعة.

بجانب الماء رقدت شجرة شربين مكسورة، جلستُ عليها وأخذت أدخن. كنتُ أعرف أنى سأمكث هنا إلى أن تمتلىء أنت غبطة وحبوراً من كافة متع النقرة الصغيرة. أفلتّ العصا من يدك واقتربتَ من أفضل موقع يناسبك فى الشجرة، ذلك الممتد داخل الماء مباشرة، وانحنيتَ راقداً عليه بمقدمة صدرك، وصرتَ

تحدق فى الماء. من الغريب أنك فى الصيف لم تكن تميل إلى اللهو باللعب المألوفة، لكنك همت بتفحص الأشياء بالغة الدقة، وكان بوسعك أن تظل - إلى ما لا نهاية - منشغلاً بزحزحة حبة رمل صغيرة فوق راحتك، أو ورقة شربين ضئيلة أو فتيتة من عشب، وكانت كسرة من طلاء الجدار بالبيت لا تزيد عن مليمتر تكشطها بأظفرك جديرة بأن تسلمك لمتعة التأمل طويلاً. وكان عالم النحل والفراش والباعوض يشغلك أكثر بكثير من عالم القطط والكلاب والأبقار والغربان والسناجب والطيور. أى كون، لا نهاية له، تفتح لك فى قاع النقرة الصغيرة وأنت راقد على الشجرة يكاد وجهك يلامس الماء متملياً كل ما فى القاع؟ وكم من حبات رمل دقيقة وصغيرة استكنت هناك، وكم من حصى تباينت ظلال لونه، وأى زغب أخضر رقيق كسا الحصى الكبير، وكم من الأسماك خليقة لتوها، دقيقة، شفافة الجسم، كانت تسكن مكانها تماماً بلا حراك، وتارة أخرى تثب فجأة فى الهواء ناثرة الماء معها، وكم من دقائق لا ترى إلا بالميكرسكوب كانت مرئية لعينيك وحدهما؟

بعد دقيقة قلتَ لى:

- الأسماك.. تسبح.

قلتُ لك وأنا أقترب لأجلس بجوارك:

- آها.. إذن لم ترحل الأسماك بعد إلى النهر الكبير؟ يا لها من أسماك صغيرة لعلها مخلوقة لتوها، فهى ضئيلة للغاية..

ووافقتنى بسرور:

- صـ.. ـغيـ.. ـلة.. جداً.

كان الماء فى النقرة الصغيرة شفافاً، إلى درجة أنه لم يكن ليُرى لولا صورة السماء المنعكسة عليه مع أعالى الشجر. دليتَ رأسك مقترباً من الماء وكمشتَ حفنة من حصى القاع، فارتفعتْ قليلاً من النقرة سحابة من عكارة دقيقة، وظلتْ معلقة هنيهة مكانها ثم هبطتْ، وحينذاك فككتَ قبضتك عن الحصى الذى كمشته فاهتزتْ صورة الشجرة على سطح الماء. وحين اعتدلتَ رافعاً نصفك العلوى من على الشجرة، ونهضتَ بسرعة، أدركتُ أنك تذكرتَ لعبتك المفضلة التى آن أوانها: رشق الماء بالأحجار.. ومرة أخرى، رجعتُ إلى جلستى الأولى، وتخيرتَ أنت حجراً كبيراً، وقلبته فى راحتك، تتأمله بحب من مختلف جوانبه واقتربت من الماء ثم قذفت الحجر إلى وسط الدوامة، واندفعت نافورة الماء إلى أعلى بخيوط الهواء المتموج، واصطك الحجر مكتوم الصوت بقاع الحفرة، وانداحت الدوائر فى الماء.. ووقفتَ مستمتعاً بصورة الماء المضطرب، وبانتشاره، وبصوت الحجر المكتوم، وبقبقة الماء، إلى أن هدأ كل شىء، فتناولت حجراً آخر، كما فعلتَ من قبل، تأملته، ثم ألقيت به..

رحتَ ترمى حجراً إثر حجر، وقد أبهجتك رؤية الرذاذ المتطاير وانداياح الدوائر، وكانت الدنيا ساكنة من حولنا ونضرة، لم تصل إلى أسماعنا ضوضاء القطارات، لم تحلق فوقنا طائرة، لم يعبر قربنا أحد، ولم يرنا إنسان. فقط "تشيف" كان يبرز من وقت لآخر، من هذه الناحية أو تلك وقد تدلى لسانه، ولكنه عند طرطشة الماء كان يجرى بعيداً إلى النهر، فيلعق المياه منه بصوت مسموع، ومن هناك يتطلع إلينا مستفهماً، ثم يعدو

مختفياً في الغابة..

استقرت باعوضة على كتفك، لكنك لم تنتبه إليها مدة طويلة، وأخيراً هششتَها بيدك وأنت تقطب وجهك مقترباً مني، وقلت لي:

- الباعوضة.. قلصتني..

حككت لك كتفك، ونفخت فيها، وربت عليها، وقلت لك:

- والآن.. ماذا تنوي؟ هل ستواصل رمي الأحجار؟ أم نمضي إلى الأمام؟

وقلتَ مقرراً: نمشي إلى الأمام. حينذاك حملتك على ذراعيّ وخضت بك نهر "ياسنوشكا". كان علينا أن نعبر الوادي الضيق المشبع بالندى، الذي بدت فيه تيجان البقول البيضاء المتكاثفة كأنها رغوة كست الوادي منصهرة تحت حرارة الشمس متموجة في خطوط غمرها النحل بطنين سعيد.. ارتفع الممر إلى أعلى بين شجر الشربين والجوز، وعلا وسط أشجار البتولا والبلوط، إلى أن انتهى عند مرج واسع تحده من اليمين غابة،، ومن اليسار حقل متموج. طلعنا المرج إلى فوق حتى بلغنا ذروته، فبان الأفق البعيد، ولاح فوق مدينة "زاجورسك" - التي لا نراها - ضباب رقيق، تبينا منه بصعوبة أعمدة الاستقبال التلفزيونية. كان واضحاً أن الحصاد قد بدأ في المرج، إذ كان الدريس ملقى أكواماً فوق الأرض والنسيم يهب مفعماً برائحته الضعيفة.

جلسنا في موضع لم تُحصد أعشابه وزهوره بعد، فطالتْ كتفيّ وأنا جالس على الأرض، ومشيتَ أنت تخوض برأسك بين الأعشاب والزهور، لا يظلك شيء سوى السماء، وتذكرتُ التفاحة، فأخرجتها من جيبي ودعكتها في العشب حتى لمعت،

أعطيتها لك، فتناولتها بيديك الاثنتين، وقضمتَها على الفور، وبدا أثر القضمة فى التفاحة كأثر قدم السنجاب.

من حولنا امتدت أرض "رادنيجسكي، واحدة من أعرق الأراضى الروسية، إحدى المدن الهادئة التى دخلت فى نطاق مدينة موسكو. وعند طرف الحقل حلقتْ عالياً حدأتان. حلقتا ببطء وانسياب فى مدار متكرر. لم يبق لنا شىء من ذلك الماضى، تبدل كل شىء، الأشجار والغابات، بل والأرض نفسها. واندثرت المدينة القديمة "رودينيج" وكأنها لم تكن، لم يبق منها سوى الذكريات، هى كل ما تبقى لنا، وهاتان الحدأتان اللتان تحلقان فى الدوائر، كأنما منذ ألف عام.. ولعل نهر "ياسنوشكا" مازال يتدفق فى نفس المجرى القديم..

فرغتَ من أكل التفاحة، لكن كان واضحاً أنك سارح فى عالم آخر.. أدركتُ ذلك. كما لاحظتُ أنك لمحت الحدأتين وأتبعتهما بصرك طويلاً. طارت بعض الفراشات فوقك، البعض منها شده لون سروالك الأحمر فحاولتْ الوقوف عليه، ولكنها كانت تحلق مرتفعة فى الحال، وبصرك لا يفارق طيرانها البهيج.

تكلمتَ معى باقتضاب، وكان بادياً على عينيك ووجهك أنك تفكر طوال الوقت فى شىء ما. يا إلهى، كم تمنيتُ أن أكون أنتَ ولو لدقيقة واحدة، لأعرف فيم تفكر.. لقد تغيرتَ وأصبحتَ إنساناً!

كان عالمنا مباركاً سعيداً، لم تنفجر فيه قنبلة، لم تحترق مدنه وأشجاره، لم يتجمد فيه الأطفال من البرد القارس، ولم يدوّم فيه ذباب الموتى فوق جثثهم الملقاة على الطريق، ولم يسيروا فى

ثياب بالية تشغى بالقمل، ولم يعيشوا فى الخرابات وكأنهم وحوش. الآن أيضاً انهمرت دموع الطفولة وسالت، لكن لسبب آخر تماماً.. تماماً. أليس ذلك من الغبطة؟ أم ماذا؟ أليس من السعادة؟ أم لماذا؟.

التفتُ حولى مرة ثانية وأنا أفكر: لعل أحداً غيرنا لم يشاهد هذا اليوم، وهذه السحب التى تتمهل فوقنا فى هذه اللحظة، والنهر الجارى تحتنا فى وسط الغابة، والحصى الذى ألقته يداك ومازال راقداً فى القاع وخيوط الماء الصافى تلتف من حوله، وهذا الهواء الحقلى والممشى الأبيض الذى وطأناه فى الحقل بين جدارين من الشوفان الذى بدا كأنما قد جرت عليه خيوط زرقاء وفضية من الجليد، لعل أحداً غيرنا لم يشاهد القرية الصغيرة الواقعة بعيداً والأفق يرتجف من خلفها. سيظل هذا اليوم فى وجدانى إلى الأبد، مثل أيام أخرى مضيئة فى حياتى، لكن هل ستتذكر أنتَ هذا اليوم؟ فتتجه ببصرك - يوماً ما فيما بعد - محدقاً بعمق إلى ذلك الماضى البعيد؟ فتحس أن السنوات التى انصرمت لم تنصرم، وترتد من جديد طفلاً صغيراً تجرى بين زهور تطال كتفيك فتطير الفراشات فزعة منك؟ أمن المعقول، أمن المعقول أنك لن تتذكر نفسك، ولن تتذكرنى؟ أحقاً أنك لن تتذكر هذه الشمس الحارة التى تلفح كتفيك؟ وسوف تنسى تماماً مذاق هذا اليوم الصيفى الطويل وصوته الذى لا يشبه الحقيقة فى شىء؟ أين ينطمر كل هذا؟ وبأى قانون غريب ينقطع ويتوارى فى عتمة العدم؟ أين تنطوى أسعد الفترات الباهرة عند بداية الحياة؟ وأرق لحظات الطفولة؟

ضـربتُ كـفـاً بكف من يأسي، لأن الزمن الذى يولد فـيـه الإنسان، أعظم الأزمنة، يستتر ويضيع منا فى الظلمة. وها أنت قد عرفتَ الكثير، واكتسبتَ ملامحكَ الشخصية الخاصة بك، وصارت لك عاداتك، وتعلمت الكلام، وأصبحتَ تفهم اللغة أفضل مما تتكلمها، وأضحى لديك ما "تحبه"، وما "لا تحبه". واسأل أى إنسان، سيقول لك الجميع إنهم يتذكرون أنفسهم من عند السنة الخامسة أو السادسة من أعمارهم، وماذا عما قبل ذلك؟ أم ترانا لا ننسى شيئاً؟ فيتردد علينا ريق الأيام الأولى والطفولة الباكرة ومضاً خاطفاً؟ ألم يحدث لكل منا تقريباً أن يرى شيئاً مألوفاً وعادياً كبركة مياة فى الطرقات الخريفية، أو يستمع إلى صوت من الأصوات، أو يشم رائحة ما فيرتجف مذهولاً من خاطر مكهرب: لقد شاهدت ذلك من قبل، لقد وقع فيما مضى، لقد عشت ذلك، أين؟ ومتى؟ هل جرى ذلك فى حياتى هذه؟ أم فى حياة أخرى؟ ويضنى كل منا نفسه لكى يتذكر، ولكى يستعيد ومضة مما مضى، بلا جدوى..

حان ميعاد نومة الظهيرة، رجعنا إلى البيت وكان "تشيف" قد سبقنا إلى هناك، ودعس لنفسه موضعاً فى العشب المتكاثف بجوار البيت ومط جسده غافياً ويده ترتجف من وقت لآخر. عم الهدوء أركان البيت، وفاض ضوء الشمس من النوافذ على الأرض قطعاً مربعة منيرة. وفى غرفتك، بينما رحتُ أخلع عنك ثيابك وألبسك "البيچاما"، كنتَ قد تذكرتَ كل ما رأيته فى الصباح وسردته علىّ. فى ختام كلامنا، تثاءبتَ بقوة مرتين. أرقدتك فى فراشك وقصدتُ غرفتى، ولعلك رحتَ فى النعاس من

قبل خروجي من عندك.

جلستُ عند نافذة مفتوحة، وأخذتُ أدخن وأنا أفكر فيك. وتصورت سنواتك المقبلة، ومن الغريب أننى لم أود أن أراك كبيراً تحلق ذقنك وتدخن السجائر وتغازل البنات، ولكنى تمنيت لو أراك أطول زمن ممكن ـ لا صغيراً كما كنتَ حينذاك فى ذلك الصيف ـ لكن وأنت فى العاشرة من عمرك تقريباً. أى تجوال وتطواف كنا سنقوم به معاً.. وحينها ما الذى كنا لن نهتم به؟

رجعتُ إلى الحاضر، ومرة أخرى فكرتُ واجماً فى أنك أكثر حكمة منى، وأنك تدرك أمراً ما أمراً أدركتُه أنا أيضاً فى زمن ما، لكنى الآن لا أذكره.. فقد نسيته. وفكرتُ فى أن هذا الكون الشاسع بكل ما به، مخلوق لكى نرنو إليه بعينى الطفولة، وأن: "هذه المملكة الإلهية ملكك أنت". ليست جديدة هذه الكلمات، فلقد قيلت منذ زمن بعيد، وإذن فقد أحسوا منذ ألف عام مضت بالتفوق المبهم للأطفال علينا.. فما الذى أعلاهم علينا؟ أهى البراءة؟ أم شىء آخر؟ أهى معرفة رهيفة من نوع خاص؟ معرفة تتلاشى مع تقدم العمر؟

انقضت أكثر من ساعة وأنا جالس أفكر. تزحزحت الشمس من مكانها بصورة ملحوظة، واستطالت الظلال فى الأرض حين شرعتَ تبكى.

فركتُ السيجارة فى المطفأة وقصدتُ غرفتك معتقداً أنك بحاجة لشىء ما. كنتَ نائماً تبكى وركبتاك مضمومتين إلى صدرك ودموعك التى همتْ بغزارة قد غمرت وسادتك. كان بكاؤك فى الحلم مريراً. استيقظتَ. كنتَ تنشج يائساً من دون أمل. لم

تكن تبكى بهذه الصورة وأنت مستيقظ، وكنت ببساطة - إذا أصابتك رضوض أو ركبت رأسك نزوة - تجهش بصوت مرتفع. لكنك الآن كنتَ تبكى كأنما تنعى أمراً ما يودعك مفارقاً للأبد. وكانت أنفاسك مختنقة من النحيب، صوتك أيضاً كان مختلفاً.

ليست الأحلام إلا انعكاساً مشوشاً للواقع، ولكن إن كان الأمر على هذا النحو فأى واقع تراءى لك فى أحلامك؟ وما الذى أبصرته سوى نظراتنا المحبة والرقيقة؟ سوى ابتساماتنا، وألعابك الصغيرة، والشمس والقمر والنجوم؟ وما الذى سمعته عدا خرير المياه، وحفيف الأشجار، وزقزقة الطيور، وصوت المطر المهنهن فوق سقف البيت وأغانى المهد؟ ما الذى أمكنك أن تعرفه من هذه الدنيا سوى هناءة الحياة اللينة؟ فلماذا يكون بكاؤك فى الحلم مريراً إلى هذا الحد؟ وأنت لم تعان شيئاً، ولم تندم على ماض، ولم يكن يلوح لك رعب الموت؟ ما الذى حلمت به؟ أم أن أرواحنا تجزع فى الطفولة خشية الآلام المقبلة؟

أخذتُ أنبهك بحذر لتفيق، وأنا أربت على كتفك، وأمر بيدى على شعر رأسك. وهززتُ يدك برفق قائلاً: "اصح يا بنى، يا حبيبى، قم يا آليوشا، قم يا حبيبى". واستيقظتَ فجلستَ على الفور فى سريرك وأنت تمد ذراعيك نحوى. ورفعتك وضممتك إلى صدرى بقوة، متعمداً أن أكرر ما أقوله بصوت نشط: "ما بك؟ ماذا جرى لك؟ لقد كان حلماً لا أكثر.. انظر.. أية شمس؟" أزحتُ الستائر جانباً عن النافذة، فامتلأت غرفتك بالنور، ولكنك واصلتَ البكاء وأنت تدفن وجهك فى صدرى وتشد أنفاسك المتقطعة وقد تشبثت أصابعك برقبتى بقوة حتى آلمتنى..

قلتُ لك: "الآن سوف نتغدى.. انظر.. آها.. ما هذا الطائر الذى يحلق هناك؟ وأين يا ترى القط "فاسا" الأبيض المنفوش؟ آليوشا؟ إيه.. آليوشا يا حبيبى.. لا تخف.. لقد انقضى ذلك.. ترى من يمشى هناك؟ أهى ماما؟". قلتُ لك كل ما عن لى من كلمات علّنى أشغلك عما بك.

ورأيتك تهدأ بالتدريج، وكان فمك لا يزال مشدوداً متشنجاً مما عانيته، إلا أن ابتسامة بدأت تلوح على وجهك، وأخيراً أشرق محياك، ونّور حين سقط بصرك على الإبريق الخزفى الصغير المعلق فى مسمار عند النافذة، وكنتَ شديد التعلق به، فنطقتَ برقة مستمتعاً بلفظ الكلمة فحسب: ا.. بريـ.. ق.

لم تمط جسمك نحوه، ولم تحاول أن تقبض عليه بيدك، كما يختطف الأطفال عادة ألعابهم المفضلة، واكتفيتَ بالنظر إليه بعينيك اللتين غسلتهما الدموع، فبدتا نقيتين بصورة خاصة، وبهدوء تمليتَ الإبريق وطلاءه المزخرف..

غسلتُ لك وجهك، وأحطتُ رقبتك بفوطة ورقية، ثم أجلستك إلى المائدة.. وبدا لى فجأة أن شيئاً ما قد طرأ عليك، إذ أنك لم تدق بقدمك أطراف المنضدة، بل ولم تبتسم، ولم تقل لى كالعادة: "بسرعة عاوز آكل"، لكنك أخذتَ تحدق صامتاً إلىَّ بنظرة ثاقبة وجدية. ودهمنى إحساس بأنك تفارقنى، وأن روحك التى اندغمت فى روحى حتى هذه اللحظة تنأى الآن عنى، وأنها سوف تنأى - أبعد فأبعد - مع كل سنة تنقضى، وأنك الآن لم تعد أنا، ولم تعد استمرارى، كما أن روحى لن تلحق بك بعد الآن، أبداً. إنك ترحل إلى الأبد.

ورأيتُ فى نظرتك العميقة التى لم تعد طفولية روحك التى تهجرنى وهى تتطلع إلىَّ مُعَذَبةً، رأيتها تودعنى إلى الأبد. واندفعتُ إليك، محاولاً أن أظل بقربك على الأقل، ولكنى أدركت أننى غير قادر على اللحاق بك، فحياتى تشدنى بقوة إلى طريقى السابق بينما تمضى أنت - من هذه الحياة - إلى طريقك الخاص. وشملنى يأس لا يوصف، وغمرنى ألم لا حَدَّ له، ومع ذلك، فقد تردد فى صدرى صوت أمل واهن فى أن روحينا ستتحدان، فى وقت ما مرة أخرى، بحيث لا تنفصلان بعدها أبداً. نعم.. لكن متى وأين سيكون ذلك؟

بصعوبة بالغة أمسكت نفسى عن البكاء يا أخى وابنى الحبيب..

ولم يكن عمرك فى ذلك الصيف يزيد عن العام ونصف العام ■

□ □ □

❖ أوليا ❖

■ أندريه بلاتونوف

فى زمن ما .. كانت تعيش فى دنيانا طفلة رائعة، نسيها الآن جميع الناس بل ونسوا اسمها كذلك، فلم يعد أحد يتذكرها أو يتذكر وجهها، باستثناء جدتى التى لم تغب تلك الطفلة الرائعة عن ذاكرتها، فحكت لى عنها، وعمن كانت..

قالت جدتى إنهم أطلقوا على تلك الطفلة اسم أوليا. وكان كل من يرى أوليا الصغيرة يستشعر فى قلبه وخز الضمير حين يستيقظ، لأن أوليا كانت حبيبة الوجه، خيرة الطبع، على حين لم يكن كل من يرمقها شريفاً وطيباً.

كانت ذات عينين واسعتين صافيتين شاهد كل الناس فى عمقهما، وفى أبعد نقطة فيهما. أحب وأهم ما فى الدنيا، ولذلك تمنى كل إنسان أن يحدق فى عينى أوليا ليستجلى فى غورهما أقصى ما يبعث السعادة فيه.

غير أن أوليا كانت تطرف بعينيها، ولهذا لا يستطيع أحد أن يستبين ما فى عمق مقلتيها الرائعتين.

وذات مرة، نظر البعض إلى عينى أوليا، وحين شرعوا يلمون بشىء مما يبصرونه طرفت أوليا بعينيها مرة ثانية، فاستحال على الناظرين أن يحيطوا بكل ما فى غورهما البعيد.

بيد أن شخصاً ساعفه النظر واستطاع أن يمده إلى أقصى مدى فى عينى أوليا، وهناك لمح ما كان. كان اسم ذاك الشخص دميان، عاش على شراء الحبوب رخيصة من الفلاحين فى

سنوات المحصول الوافر ثم بيعها غالية فى السنوات العجاف، وبهذا كان على الدوام يحيا فى ثراء ورفاهية.

فى قاع عينى أوليا رأى دميان صورته، ليس كما كان يبدو للناس وإنما كما كان فى دخيلته حقاً: "شدق بشع ونظرة وحشية". لقد ارتسمت على وجهه روحه غير المرئية واضحة فى عينى أوليا. وما كاد دميان يرنو إلى صورته حتى ارتحل عن مكان معيشته ومنذ ذلك الحين انقطعت عن الناس أخباره فترة طويلة، وأخذوا ينسونه شيئاً فشيئاً.

فى عينى أوليا كانت تنعكس الحقيقة الخالصة فقط. فلو أن شخصاً قاسى القلب، جميل الوجه فاخر الملبس نظر فى مقلتيها لتجلى فيهما بشعاً تتآكله القروح بدلاً من الزينة.

أما أوليا نفسها فلم تكن تدرى أن الحقيقة تنعكس فى عينيها. كانت ما تزال صغيرة، لا تدرك.

وبالرغم من أن باقى الناس لم يستطيعوا أن يلمحوا صورهم فى عينيها، إلا أنهم جميعاً هاموا بها، وقدروا أن الحياة بخير مادامت أوليا تحيا بهذه الدنيا.

لم يعرف أحدٌ لأوليا أباً ولا أماً، فقد عثروا عليها فى الصيف تحت شجرة الصنوبر عند البئر وقد مرت على ولادتها عدة أسابيع، ملقاة على الأرض، ملفوفة فى شال دافىء، تتطلع نحو السماء فى سكون بعينين واسعتين يتبدل لونهما: فمرة تبدوان رصاصتين، وأخرى سماويتين، وثالثة سوداوين حالكتين. واحتضن الناس الأخيار الطفلة فتبنتها أسرة قروية لم يولد لها طفل، وعمدتها باسم "أوليا".

وقضت أوليا كل طفولتها المبكرة فى كوخ والديها بالتبنى.
وكان يحدث عندما تنام أن عينيها تظلان نصف مغلقتين وكأنها تبصر بهما. وحين كان الفجر يقترب وينشر نوره فى الكوخ، كان كل ما يبين فى الضوء خارج الشباك ينعكس فى عينيها نصف المفتوحتين. كانت تنام على الدكة فيضىء أول النهار وجهها. وكانت الحياة تعيش أولاً خارج الكوخ: فروع الصفصافة النامية خلف الشباك، والسحب المزدهرة بشمس وليدة هادئة، والطيور المحلقة. ثم تعيش ثانية حين تتألق فى عمق عينى أوليا. لكن السحب وأوراق الصفصافة والطيور كانت تلوح أجمل وأصفى وأكثر بهجة فى عينى أوليا مما تبدو للناس فى الطبيعة.

أحب الوالدان أوليا الصغيرة حباً عميقاً، فكانا يستيقظان فى الليل من فرط شوقهما إليها ويغادران غرفتهما ويقتربان من أوليا، وفى العتمة يطيلان النظر إلى تلك الطفلة النائمة الغريبة التى صارت أحب إليهما من أى مخلوق فى العالم. وكان يلوح لهما أن عينى أوليا تفتران عن ضياء فيفيض الكوخ الفقير بجو صبيح حينذاك، وكأن الوقت يوم عيد من ماضى من شباب الزوجين.

قالت الأم بصوت هادىء:

- ستموت أوليا عما قريب.

نهرها الأب:

- اسكتى، لا تجلبى المصائب بمثل هذا الحديث. ما الذى يجعلها تموت وهى طفلة؟

قالت الأم ثانية:

- أمثالها لا يعيشون طويلاً.. إن عينيها لا تنغلقان أثناء نومها.

كان الناس في قريتنا يعتقدون أن الأطفال الذين لا تنغلق عيونهم أثناء النوم يموتون في سن مبكرة.

أكثر من مرة أرادت الأم أن تسدل بيدها جفني أوليا وهي نائمة، لكن الأب أمرها ألا تلمسها وهي نائمة حتى لا تفزعها. وكانت أوليا في النهار تلعب بقصاصات الأقمشة في ركن الكوخ، أو تسكب الماء بالتناوب من القصعة الفخارية في كوب معدني، في هذا الوقت تحاشى أبوها أن يمسها كأنما خشية أن يؤذي جسمها الصغير.

نما شعر أوليا فاتح اللون يكسو رأسها، وتجعدت خصلاته كأن الريح دخلت ما بينها ثم تجمدت، أما وجهها فقد بدا - في اليقظة أو في النوم - جزعاً يمعن النظر في اتجاه ما. لذلك كان الوالدان يحسبان أن أوليا تعاني لتسألهما عن شيء يعذبها، لكنها لا تقدر، لأنها لم تكن تستطيع الكلام.

وتوجس أبوها أنها تكابد وجعاً ما فاستدعى لها الممرض لعله يخفف عنها.

أنصت الممرض إلى تنفسها وقال إن كل ما بها سيزول حين تصبح كبيرة.

تساءل الوالد:

- لماذا يحبها الجميع هكذا؟ ليتها كانت أقل جمالاً.

قال الممرض:

- إنها تحفة الطبيعة.

استاء والداها وقالا:

ـ أية تحفة؟ إنها كائن حي وليست لعبة.

وحاول إناس آخرون، كما في السابق، أن ينظروا إلى عيني أوليا لكي يروا هناك من هم.. في الحقيقة؟ ولعل أحدهم قد رأى نفسه على حقيقتها لكنه لم يبح للآخرين بذلك قائلاً إن الفرصة لم تواته، لأن أوليا طرفت بعينيها.

وقد عرف الناس كلهم أن لون عيني أوليا يتبدل، فهي حين تشخص إلى ما هو خير، إلى السماء، إلى فراشة، إلى زهرة أو إلى عابر طريق فقير وعجوز، فإن عينيها تفيضان بضوء صاف، وهي حين تشخص إلى ما ينطوي داخله على الشر تعتم عيناها وتصيران حالكتين. وكانت صورة المرء أو الشيء الذي ترمقه أوليا تنعكس في عمق عينيها، في منتصفهما، في النور الذي يشع هناك جلياً ثابتاً، في هذا النور كان يبين المطموس سراً في الأعماق ولا يراه أحد، فينعكس، لا كما يلمحه الناس من الظاهر، لكن ينعكس على حقيقته.

بدأت أوليا تنطق في عامها الثاني، وكان كلامها قليلاً، لكنه واضح. وكان عدد الكلمات التي عرفتها محدوداً. شاهدت في شوارع القرية وحقولها ما شاهده الجميع فألفوه، لكن أولياكانت تندهش بصورة دائمة من كل ما تراه، وتصرخ من الرعب وتبكي أحياناً وهي تشير إلى ما نظرت إليه...

سألها أبوها وهو يرفعها إليه دون أن يفهم ما يفزعها:

ـ ما بك يا حبيبتي أوليا؟ ماذا جرى؟ لماذا تحدقين فيَّ هكذا؟ أنا هنا معك.. تلك أبقار تمشي إلى حظيرتها هناك.. لا أكثر.

وتطلعت إلى أبيها برهبة كأنه غريب لم تره أبداً من قبل ثم انزلقت مذعورة إلى الأرض وفرت منه.

كذلك كانت أوليا تخاف أمها وتختبىء منها.

كانت تهدأ فى العتمة فحسب. هناك حيث لا ترى عيناها أى شىء.

كانت تستيقظ فى الصبح، وتعتزم أن تهرب على الفور من البيت، فتمشى إلى صومعة الحبوب المعتمة أو إلى الحقل. وهناك فى الوادى الضيق، حيث الكهف الرملى كانت تقبع فى الغبشة إلى أن يعثر عليها والداها. وحين كان أحدهما يحملها على ذراعيه ويضمها إليه ويقبلها فى عينيها كانت تبكى خوفاً وجسمها كله يرتعد، وكأن والديها لم يكونا يدللانها، بل كأن ذئاباً تتناوشها.

وكانت إذا لمحت فراشة هشة ترفرف فوق أعشاب جعلت تصيح وتفر بعيداً عنها، ويستمر قلبها يخفق بالذعر فترة. وكانت جدتى بالذات هى أكثر شخص تهابه أوليا. وجدتى تلك كانت طاعنة فى السن، إلى درجة أن العجائز الأخريات كن ينادينها بـ "جدتنا" وقلما ترددت جدتى على الكوخ الذى تسكن فيه أوليا، وكانت - إذا توجهت إلى هناك - تحمل معها كل مرة هدية للطفلة: قرصاً من الدقيق الأبيض، أو سكراً، أو قفازاً من صوف تحوكه بالأبر أربعين يوماً كاملة، أو أى شىء مما تحتاج إليه طفلة..

قالت جدتى عن نفسها إنه كان من المفروض أن تموت، فقد حان أجلها منذ زمن! والآن لا يمكنها أن تموت، ذاك لأنها حين تتذكر أوليا يتنفس قلبها الضعيف من جديد، ويخفق كأنه قلب

شاب يتنفس من محبته لأوليا، ومن عطفه عليها، وفرحته بها.

لكن أوليا كانت ما أن ترى جدتي حتى تجهش بالبكاء على الفور، ولا ترفع عنها مقلتيها المعتمتين، بل وتأخذها رعشة من الخوف.

قالت جدتي:

ـ هذه البنت لا تبصر الحقيقة، فهي ترى في الشر خيراً، وفي الخير شراً.

تساءل أبوها:

ـ كيف ذلك؟ في حين يرى الآخرون الحقيقة الخالصة في عينيها؟

قالت الجدة ثانية:

ـ هكذا تضيء الحقيقة الكاملة في عينيها، أما هي نفسها فلا تدرك.. ويبدو لها كل شيء معكوساً. كان الأفضل لها لو أنها عمياء، فحياتها أشد مرارة من حياة العمياء.

فكر أبوها حينذاك: "بالفعل، أوليا ترى السيئ حسناً، والطيب قبيحاً، يجوز أن ما قالته الجدة صحيح؟".

لم تحب أوليا الزهور ولم تقربها أبداً، لكنها كانت تجمع وسخ الأرض بطرف جلبابها وتذهب إلى مكان معتم، وتلعب وحدها، تحرك الوسخ بيديها وقد أغمضت عينيها. كذلك لم تصادق أطفال القرية، فكانت تولى عنهم راكضة إلى البيت.

صرخت أوليا:

ـ إنهم بشعون.. أنا خائفة.

ضمت الأم رأس أوليا إلى صدرها كأنما ابتغت لو أخفتها

فى قلبها لتطمئنها. ولم يكن الأطفال فى القرية مدللين، بل طيبين وأبرياء يميلون إلى أوليا ويبتسمون لها.

لم تستكشف الأم ما يفزع أوليا، ولم تعرف ما هو الشىء الدميم فى هذه الدنيا الذى تبصره عيناها البديعتان التعيستان دون غيرهما من العيون.

قالت لها:

- لا تخافى يا حبيبتى.. لا تخشى شيئاً يا ابنتى، أنا معك.

فنظرت أوليا إلى أمها وصرخت ثانية:

- أنا خائفة.

- من يخيفك هنا؟ هذه أنا.. أمك!

- أخاف منك.. أنت مخيفة!

وأطبقت أوليا عينيها لكى لا ترى أمها.

لم يدر أحد ما الذى تراه أوليا، ولم تتمكن هى لذعرها من أن تقول شيئاً.

بنت أخرى نمت فى القرية، بنت اسمها "جروشا"، وكان عمرها فى ذلك الوقت أربع سنوات. وفقط مع هذه البنت شرعت أوليا تلعب، بل وهامت بها حباً. وكان وجه جروشا مستطيلاً، ولهذا سموها "رأس الفرس". وكانت حانقة بطبعها، والأكثر من هذا أنها كانت تكره والديها وتردد أنها عما قريب ستفر من بيتها، ستفر بعيداً بعيداً، ولن تعود ثانية أبداً، هذا لأن: (هنا سيئ.. وهناك حسن).

طفقت أوليا تتحسس بيديها وجه جروشا، قائلة لها إنها جميلة. وراحت عينا أوليا تسرحان بوله فى وجه جروشا المتجهم

الحانق كأنها تبصر أمامها صديقة بهية الوجه محبوبة وطيبة.
وذات يوم، تفرست جروشا بالصدفة فى عينى أوليا، وساعفتها لحظة رأت فيها نفسها هناك، كما هى فى الواقع، فزعقت من الهلع هاربة إلى بيتها.

منذ ذلك الحين صارت جروشا أطيب قلباً، وكفت عن الغضب على والديها، وعن تكرار أن البيت لا يرضيها. وكانت حين تنتابها من جديد مشاعر النقمة، تتذكر هيئتها المخيفة فى عينى أوليا، فتصاب بالذعر من نفسها، وتعود مسالمة وديعة.

وعلى الرغم من أنه كان محزناً لأوليا نفسها أن ترى الوجوه الطيبة قبيحة، والورود أيضاً قبيحة، إلا أنها كانت طفلة، وشأن كل الأطفال الصغار طعمت الخبز، واحتست اللبن، فكبرت، ومضت الحياة، وما أسرع ما تمضى، فأتمت أوليا عامها الخامس ثم السادس فالسابع.

فى هذا الوقت عاد إلى القرية دميان، ذلك الرجل الذى كان قد هاجر منذ زمن، ولم يدر أحد حينذاك إلى أين ذهب؟ عاد بسيطاً وفقيراً، وجعل يحرث الأرض مثل باقى الناس. وعاش حتى سنوات شيخوخته رحيم القلب. بل وتمنى لو يأخذ أوليا لتعيش معه ابنة له فى بيته، لأنه عجوز ووحيد. لكن والدى أوليا رفضا ذلك، لأنهما، منذ حملاها إلى الكوخ صغيرة، لم يعودا قادرين على الحياة بدونها.

فى عامها الخامس كفت أوليا عن الصراخ والهرب فزعاً، وأصبح الحزن لا غيره يستولى عليها حين ترى أمامها إنساناً طيباً ورائعاً حتى لو كان جدتى العجوز، أو شخصاً آخر رقيقاً.

وكانت تبكى فى أغلب أوقاتها. لكن الصورة الحقيقية لمن تنظر إليهم ظلت تسطع فى عمق عينيها الواسعتين كما من قبل. أما هى نفسها فلم تكن تبصر الحقيقة، لكنها كانت تبصر الكذب. وكانت عيناها وهما تطالعان الدنيا، كأنما تتجمدان دهشة مما تبصران... صريحتان، حزينتان، لا تفهمان ما تراه.

حين أتمت أوليا السنة السابعة من عمرها، صارحها والداها بأنهما لا يمتان إليها بصلة قرابة، أما عن والديها الحقيقيين، فلا يدرى أحد أين هما، وهل هما فى عداد الأحياء أم الأموات؟ رأى والداها أن هذا هو التصرف السليم، ورغبا أن تعرف أوليا الحقيقة منهما لا من الغرباء الذين سيخبرونها بتلك الحقيقة فى يوم ما، لكن بطريقة مؤلمة تؤذى روح الطفلة.

وسألت أوليا:

- وهل هما أيضاً مخيفان؟

أجاب والداها:

- لا.. إنهما والداك. ولا يجب أن يكون هناك من هو أحب منهما لديك.

وتنهدت أمها قائلة:

- أنتِ لا تبصرين الحقيقة يا ابنتى. إن عينيك تالفتان.

وازدادت أوليا كآبة منذ ذلك الوقت. وانقضى صيف بعد ذلك، وقررت أوليا أن تهجر الكوخ عند حلول الخريف باحثة فى العالم عن والديها اللذين هجراها. ولكن لم يكد الصيف ينقضى حتى جاءت إلى القرية فلاحة متقدمة فى السن، تنتعل خفين من اللوف، حاملة على ظهرها بقجة خبز. وكان من الواضح أنها

متعبة وأنها قطعت طريقاً طويلاً على قدميها.

وفى الطريق، حيث انتصبت شجرة الصنوبر العتيقة عند البئر، جلست المرأة، وأخذت تتطلع إلى الشجرة. ثم نهضت بعد ذلك وتحسست الأرض من حول الشجرة كأنها تبحث عن شيء ما، ملقى، ومنسى، منذ وقت بعيد. بدلت المرأة خفيها، ثم مشت صوب كوخ دميان، وقعدت على المصطبة.

لم يكن هناك مارة فى الطريق، كان أغلب الناس فى ذلك الوقت يعملون فى الحقول. وظلت المرأة القادمة من بعيد جالسة وحدها فترة طويلة. حتى خرجت طفلة من أحد الأكواخ ونظرت إلى المرأة الغريبة وراحت تدنو منها.

قالت البنت ذات العينين الواسعتين صافيتى الضياء:

ـ أنت لست مخيفة.

ونظرت المرأة القادمة من بعيد إلى البنت، وأمسكتها من يدها، ثم ضمتها إليها وأطالت احتضانها.

لم ترتعد البنت، ولم تصرخ. وحينذاك قبلت المرأة عين الطفلة، ثم الثانية، وانخرطت في بكاء. لقد أيقنت أن أوليا ابنتها، ميَّزتها بقلبها الذى ارتعش، ميَّزتها بعينيها، بالحسنة التى على رقبتها، وبتكوين جسمها الدقيق.

قالت المرأة:

ـ كنت شابة وغبية فرميتك للناس. والآن عدت لآخذك.

التصقت أوليا بصدر المرأة الناعم الدافىء ونعست. قالت المرأة وهى تقبل عينى أوليا نصف المغلقتين: "أنا أمك".

داوت قبلة الأم عينى أوليا فصارت ترى الضوء الأبيض

المشمس بشكل مألوف مثل كل الناس. وأصبحت في هدوء وثبات تتطلع أمامها، بعينين رصاصيتين، واضحتين، ولم تعد تهاب أحداً. صارت ترى كل ما هو طيب على الأرض باهر، في صورته السليمة، دون أن يلوح لها مفزعاً ودميماً، وكفت عن رؤية الشر والقسوة زائغين كما كان يحدث في السابق وهي بلا أم. غير أنه منذ تلك اللحظة، اختفى ما كان يلمحه الآخرون في عمق عيني أوليا، وتوارت منهما صورة الحقيقة المستخفية، ولم تحس أوليا فاجعة أن الحق لم يعد يضيء في عينيها، ولم تحزن أمها حين علمت بهذا.

قالت أمها:

- لا يحتاج الناس إلى رؤية الحقيقة، إنهم يعرفونها من أنفسهم، أما الذي لا يعرفها فإنه لن يصدقها، حتى لو شاهدها بنفسه.

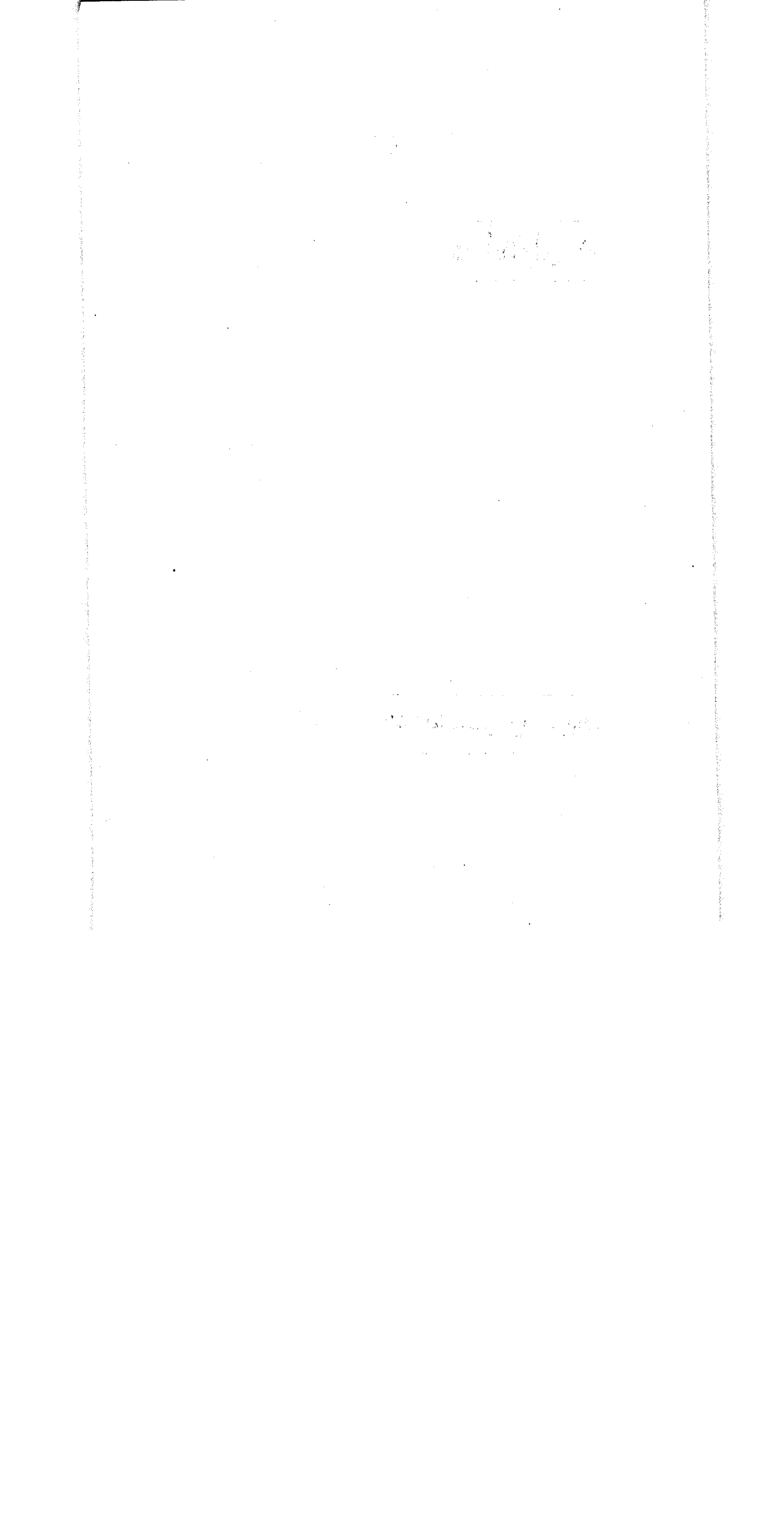
في ذلك الوقت ماتت جدتي العجوز، ولم يعد بوسعها أن تحكي لي أكثر من هذا عن أوليا.

لكني بعد مرور زمن طويل، رأيت أوليا بنفسي. كانت قد صارت شابة جميلة جمالاً أكثر مما يحتاجه الناس. لذلك امتلأ الناس بها إعجاباً.. لكن قلوبهم غدت فاترة نحوها ■

□ □ □

❖ الألوان ❖

■ ألكسـي ريميـزوف



لا أذكر أن لحظة مرت بي.. دون رسم.

وقد همت - أكثر من أي شيء - بالتوقف عند الصور وإدامة النظر إليها.

ومازلت أحفظ - من ذكرياتي الأولى - صورة جلفر[١]، وهو راقد، وقد باعد ما بين ساقيه، وقد مشت بينهما طوابير الأقزام العسكرية، وكذلك اللوحات الملونة التي ازدانت بها كتب أساطير الأخوين "جريموف"[٢]: حذاء الكريستال، القنفذ، أكلة لحوم البشر، وحية في ذاكرتي الصور السوداء الملحقة بأسطورة "الجنية"[٣]، وما تزال تتردد بين جوانحي عبارة الجنية: "ارفعوا جفنيّ، أني لا أرى.." لكنها تتردد وقد زادت "أي شيء"... "أني لا أرى أي شيء".

كنت أرسم لا بالقلم، بل بالألوان المائية الرخيصة التي كانت تباع حينذاك في موسكو. ولم يكن بوسعي أن أبصر - بهدوء ولا مبالاة - العلب الورقية التي تفتحها فتجدها مشتملة على دوائر

---

(١) جلفر: بطل رواية يوهان سويفت الشهيرة "جلفر في بلاد العمالقة" المترجم.

(٢) الأخوان جريموف: قاما بتأسيس علم اللغة الألمانية، صدرت لهما "أساطير للأسرة والأطفال" وترجمت إلى الروسية في ١٨١٢، وكانت منتشرة حينذاك. المترجم.

(٣) الجنية: جن في الأساطير الروسية يظهر في هيئة امرأة جميلة، تعيش بنعش في المقابر، وتنادي من يتردد على المقابر من الشباب، فيقعون في غرامها، فتنفرد بهم، وحين يستجيبون لندائها "ارفعوا جفني.. أني لا أرى"، تشرع في إضحاكهم، حتى يقعوا صرعى الضحك المتواصل. المترجم.

الألوان المختلفة.

ولم أكن ألهو بالألعاب المألوفة، ولكن اللعب فى موقد التناك الصفيحى كان داءً قاتلاً يسيطر علىَّ. وفيما بعد ظهرت بعض اللعب - التى لم أتلقاها كهدايا - مثل الدب الخزفى الصغير، الذى سيتحول إلى جزء من أساطيرى فى وقت لاحق، وكذلك الطيارة الورقية(٤) التى خرجت من بيضة، وستصبح ملمحاً مما أرسمه، وهكذا انتقلت من الخيط الذى يلتوى، إلى الأفعى، ومن الأفعى إلى تمثال "أوفيس الحكيم"، وكان أبى قد أهدانى إياه قبل موته، فظل ذكرى منه.

ولم تكن الألوان عندى لهواً، بل عملاً متعباً.

فى الربيع، حينما كانوا يصبغون البيض لاستقبال عيد الفصح، كنت ألح عليهم ليعطونى ما تبقى من صبغة، وكذلك فرخ الورق الذى كانوا ينشرون البيض فوقه بعد انتشال البيض من الصبغة، ذلك أن آثار ألوان البيض وهو يجف على الفرخ كانت تنشىء مختلف الأشكال والرسوم المدهشة. وكان بوسعى أن أرنو إلى تلك الأشكال دون انقطاع لساعات طويلة، أطول مدة ممكنة طالما لم يصب الدوار رأسى، كنت أزر عينى وأرصد موجات الضوء من اللون السماوى وهى تسبح متكاثفة عند أهدابى الفضية إلى عينى، أو استغرق - من دون أن أزر عينى - فى التحديق إلى قصاصات الحرير متعددة الألوان فى اللحاف المضرّب.

---

(٤) الطيارة الورقية: وهى الطيارة التى يلعب بها الأطفال فيطلقونها فى السماء، وتسمى بالروسية "الثعبان الورقى" لأن خيطها يتلوى فى الهواء وهى ترتفع، ويبدو ورقها المشدود مثل رأس الثعبان. ولذلك يتخيل الكاتب أن هذا الثعبان قد خرج من بيضة. المترجم.

وكنت أتناول كل ما يقع تحت يدى من أدوات - شرط أن تكون معدنية - ولم يكن هناك شيء يفوق ميلى إلى قلابة الحطب فى المدفأة، الحديدة الضخمة التى لا يعرف أحد كيف آلت إلينا، فلم يكن بدارنا مدفأة، وكنتُ آخذها وأذهب إلى إحدى الغرف فألصق أذنى بالحائط وأسد أذنى الأخرى بأصبعى، ثم أضرب الحائط بالحديدة، وأظل ساعات أستمع إلى رنين الصوت المتردد، الذى ينداح وهو يعلو سابحاً فى موجات ملونة.

لم يكن اللون والصوت عندى لينفصلان.

وكنت أميز أجراس الكنائس، ليس بأصواتها فحسب، فقد كان كل جرس يصطبغ عندى بلونه الخاص: فجرس كنيسة "روبلوف" كان يرن فى أذنى أزرق اللون، سابحاً فى موجة من النجوم الفضية، وكان جرس كنيسة "سيمونوف" النائية يرن نحاسياً أخضر اللون، أما جرس كنيسة "إيفان العظيم" فكان يسرى وينفذ حتى من خلال أطر النوافذ المزدوجة فى البيوت البعيدة عند بوابة موسكو، ويصب فى روحى مثل فيضان نهر موسكو: أحمر داكن الحمرة، وغامق مخملى.

كان بوسعى أن أحدد اللون من الصوت، ومن لون المرء كنت أحدد صوته.

وكان عندى قطٌ لم يفارقنى طيلة سبع سنوات، سموه "ناحوم" على اسم القديس ناحوم، وضعته قطتنا مع باقى قططها الصغيرة فى يوم مولدى، واختصونى بذلك القط لتسليتى. وكان ميلادى فى بيتنا الواقع خلف نهر موسكو، عند الجسر الحجرى المبنى تمجيداً لذكرى "فانكا كاين"، هناك فى زقاق

"تولماتشوفسكى الكبير" قرب معرض "تريتيكوفسكى".

نمت عاماً واحداً، واستيقظت فى السنة الثانية من مولدى على رنين أجراس الكنائس بالساحة الحمراء، لم يخفت ذلك الرنين الأول فى ذاكرتى، ولم يزل انسجامه المميز، والمؤكد أنه هو الذى ولّد فى نفسى قدرتى على تمييز كل ما هو روسى أصيل حقاً، مما هو زائف. فى السنة الثانية من مولدى، انتقلت بنا أمى إلى مسكن آخر بشارع "السد"، ومنه انتقلنا ـ تحت رعاية أخوالى ـ إلى "الجسر المرتفع"، وهناك أسكنونا جناحاً منعزلاً بالقسم الخلفى من الدار، وكان يطل على جسر "يارسلافسكى". وكان ذلك الجناح فيما مضى، مصبغة ومدبغة لوالد جدى وكان معلم صباغة يشرف على العمل بنفسه. إلى جوار المصبغة تتابعت عدة غرف صغيرة، كانت تابعة لمصنع ورق "نايديونڤ"، جعلوها لمعيشة العمال.

من بيتنا القديم خلف نهر موسكو، انتقل معنا إلى المسكن الجديد القط "ناحوم".

وكان القط أخضر العينين، ذا شوارب بيضاء طويلة وشعره المنتفش رصاصى اللون، ولا ينام إلا قرب سريرى، فإذا جلست منهمكاً فى ألوانى، وجدته دائماً حاضراً إلى جوارى، وبدا لى أنه كائن كبير، تحيطه هالة من النور، مثل نور يوم غائم هادىء يشيع الأحلام بلا نهاية، وكنت أنسج له الأساطير من خيالى، وأكلمه، فينصت إلىَّ بانتباه، وبدا لى فى بعض الأوقات أنه بدوره يقول لى شيئاً ما، وكنت أصيخ السمع باذلاً كل جهدى لأفهمه. وعشنا معاً صديقين على ذلك النحو، أنا أرسم، وهو ينظف وجهه

ببراثنه، ولم أضربه أو أعذبه أبداً، ولا أعرف صحة ما يقوله الناس: "القط يحب خنَّاقه"، لكن الأرجح أن القطط تصبر على من يؤذيها لا أكثر. وكنت أضمه إليَّ بحرص، ولم أقرصه أبداً أو أجذبه من ذيله، لكنى كنت أصبغ شعره بالألوان التى أحبها.

لقد همتُ بالألوان، وتعلقت حتى برائحتها المميزة.

ولو سألونى حينذاك "من تود أن تكون حينما تكبر؟"، لأجبتهم بلا تروى: "أريد أن أصبح واحداً من عمال الطلاء والنقاشين عند صمويلوف". وصمويلوف كبير القساوسة فى الكنيسة، كان أشقر فى شبابه، والآن صار شعره أشيب يخالطه لون أخضر خفيف، وكان يبدو لى فى هيئة "يوسف النجار" وهو واقف يوم الجمعة الحزينة خلف الهيكل بالكنيسة يخرج الثوب المرسوم عليه صورة المسيح، ثم يرتل باكياً بدموع تتألق بلون ذهبى من انعكاس النور الأرجوانى للشموع المحترقة عليها.

وكان صمويلوف معلم طلاء، يستعين بمجموعة من العمال تعيش فى القبو ببيته الأبيض المؤلف من طابق واحد، ناصع النوافذ، بزقاق "فارابينسكى".

وقد بدت لى وجوه البشر عامة مضيئة، وخاصة وجوه النقاشين التى تراءت لى أكثر استنارة من غيرها، وبالذات "ماتفى"، وكان ممشوق القوام، يحسن ترتيل الألحان الكنسية بصوت رقيق، يشبه موج الرنين العذب الذى ينداح فى الجدار حينما أطرقه بعامود الحديد، كان يرتل بضياع معذَّبْ وبنبرة غاربة كلحظة الشفق، وحينما كانت روحه تنوء بأثقال كل ما جرى له فى حياته، وكل ما لن يقع له أبداً، كل ما قد رآه، وكل

ما لن يراه أبداً، حينذاك، كان يرتل بصوت كأنه يوم غائم.

وكان يتحدث بطريقة تبعث على الضحك، هذا غير جمله التى يرسلها مقفاة، مؤكداً كلامه بالحكم والأمثال على طريقة الأب "فاكوم"، بينما تفوح منه - أثناء ذلك - رائحة المعجون مُثَّبت الطلاء طازجة ممتزجة برائحة زيت الكتان.

لا أتذكر ما الذى أسفرت عنه رسوماتى حينذاك، لكنى أذكر بقع الألوان وهى تنتـــقل من الورق إلى يدىّ، ومن يدىّ إلى المنضدة، ومنها إلى الأرض فتدوس فيها الأقدام وتلطخ بآثارها مساحة أوسع، وذلك من سوء حظ مربيتى العجوز "بروسكوڤايا سيميونوڤنا" التى خيل إليها أن كل الأطفال بنات. فتقول لى: "لو أنك كنت صبية لنظفت الآن ما وسخته". كان صوتها خاشعاً ومسالماً مثل عينيها الغائرتين، الصابرتين، ونظرتها المسدلة على هلع دفين ورثته عن أسلافها من الأقنان الغابرين.

فى فترة لاحقة، انتظمتُ فى الصف الأول، بمدرسة موسكو الرابعة، وكانت تقع فى بيت قديم ملك "رازوموفسكى" بشارع "باكروڤا" فى مواجهة حانوت "بوتكينسكى" للتحف العتيقة، وحانوت "تشويفسكى" لبيع الخبز. خارج الفصل انخرطت فى تسلية وحيدة هى رسم مختلف أشكال الذيول وخصل الشعر.

بعد انتهاء الدراسة، كنت أخرج مع زميلى فى الصف "بوجال" وكان مثلى أخرق الطبع يمزق ثيابه - وكان الخياط "بول" قد فصل لكل منا بذلة ومعطفاً - وبينما نحن فى طريق العودة كنا نمر على البيوت وندق الجرس عند كل مدخل فنزعج عطفة "ففيدسكى" بأكملها التى ضمت من السكان عدداً لا يقل عن

الناس في سوق "أفينا".

وفي الصباح، ونحن في طريقنا إلى المدرسة كنا نطبع بالطباشير صورة الشيطان على ظهور المارة، وذلك بأن ندعك بالطباشير راحة الكف واصبعين اثنين فقط، ومن لعابنا نرشق عينين وفماً مفتوحاً في راحة الكف، ثم نخبط العابرين كأنما سهواً على ظهورهم، فتنطبع عليها تلك الصورة، وكان كثير من الناس البسطاء والمعتدين بأنفسهم يمضون وهم يحملون على ظهورهم - دون أن يعرفوا أو يشاهدوا - ذلك الختم الطباشيري، الذي يشبه "الآس الديناري" ببذلة المساجين، ويمضون به من شارع "بوكروفسكي" إلى شارع "ماراسكايا" في المدينة. ذلك الشيطان الطباشيري كان الرسم الوحيد، الواقعي، الذي رسمته. على أية حال، لم يسأل أحد عن اسم تلك الصورة، لا في شارع "ايليانكا" ولا في "فارفاركا"، ولا في "نيكولسكايا"، ولا بأي زقاق من أزقة المدينة، ذلك أن أصغر وأغبى طفل، كان يشهق مدهوشاً حين يرى الرسم على ظهر أحد ويصيح: "يا الله.. شيطان هولندي!".

ولكني وحدي - من غير زميلي بوجال هذه المرة - كنت أرسم بالطباشير على الجدران التي كتب البوليس فوقها: "ممنوع الوقوف نهائياً في هذا المكان".

ولم تكن رسومي تلك مفهومة لأحد، مثلها مثل ألواني، فقد كانت كلها مرسومة على نحو غير مألوف، وبفخامة غريبة، تشبه العالم غير المألوف الذي مضت فيه حياتي المبهمة، والتي تخللها إحساس مضطرب ومرتجف، كذلك الذي يحسه الإنسان في حلم من الأحلام المخيفة.

وكنت أرى أحلامى كلها ملونة، وكل ما فيها ضخم على حالته الأولى السابقة على كل شىء، ورافقت الأصوات العذبة تلك الأحلام وكنت أسمع بينها صوتى أنا، يتردد رناناً، سماوى اللون.

لقد صبغت الألوان كل ما وقع عليه بصرى ورأيته، وكل ما سمعته. أيضاً فقد تردد كل شىء فى أذنى أصواتاً.

وذات يوم، مثلما يحدث فى الأساطير، ألصقت أذنى بالأرض، وضعتها فوق حجر روسى وحشى، فإذا بالحجر الوحشى الرمادى يكلمنى ■

□ □ □

❖ السفر ❖

■ يــوري تيرفنيــف

ذات يوم، فى أبريل، أدركت أنه لن ينقذنى إلا شىء واحد فقط: السفر. لابد من السفر. لا يهم إلى أين، وسيان كيف: بالطائرة، أم على ظهر سفينة، فى عربة تجرها الخيول، أو حتى فى عربة نقل. لابد من السفر فوراً. وللأسباب التى دفعتنى إلى هذه الحالة السيئة قصة أخرى، تستغرق روايتها وقتاً طويلاً، فضلاً عن أنه لا داعى لذلك. المهم أن الوقت كان فجراً، حين شرع الأرق يعذبنى دفعة واحدة، وشعرت بصدرى يختنق. وفسر الأطباء ذلك بإرهاق عصبى، لكنى كنت أعرف أن هذا يعود إلى سبب آخر، ربما لأن الرعود كانت تتسكع هنا وهناك، وأن تيارات الهواء الدافىء قد وصلت إلى "بادولسك" وأخذت تتقدم نحو موسكو، لذلك يخيل إلىَّ أننى أختنق، وأن الدم لا يصل إلى مخى، وأنى سأموت إن لم أفلت غداً من هذا القفص المبنى من الجص، والورق الملصق على الجدران برسومه التجريدية، والأرفف المطلية والكتب التى عليها، وجِلْدُ الكتب، والفطائر الصغيرة، والشاى، والصحف، والمنقاشات، وأجراس التليفون، والإيصالات، وأنواع الزعل، والآمال، والإرهاق، والوجوه الحبيبة. سأموت إن لم أفلت من كل ذلك.

ليس من السهل تفسير ما ينتاب المرء قرب الفجر فى أبريل، حينما يرتج ليلاً برواز النافذة المفتوحة للريح، ويطقطق شريط

الورق الملصوق أسفل الشباك وهو ينسلخ(١).

وحل يوم رمادى، ثم انقلب بعد قليل فصارت السماء زرقاء صافية بلا سحب. وخرجت إلى الشارع ـ للمرة الأولى فى هذه السنة ـ من دون غطاء رأس، وقصدت إدارة تحرير إحدى الصحف كى أحصل منها على تكليف بمهمة صحفية خارج موسكو، وأسافر فى الحال. وكان البعض من هذه الصحيفة قد دعانى ذات يوم لمأمورية صحفية والآن ليس مفهوماً لهم ما الذى أريده بالضبط. حكى لى رئيس تحرير قسم "الصناعة" ـ وكان رجلاً ضئيلاً معتلاً يرتدى قميصاً من "الجرسيه" ـ فقال إنه تجرى على قدم وساق، فى مدينة "سالينكامسك" ومدينة "كاندابورج" عملية بناء المجمعات الضخمة لانتاج الورق، أما فى مقاطعة "تيومنسكى" فقد تم اكتشاف آبار نفط جديدة. الأهم من كل هذا ما يحدث فى مقاطعة "إيركوتسكايا"، حيث يقومون ببناء حوض صناعى ضخم. وقال الرجل "أما إذا تحدثنا عن الصناعات الكيماوية الكبرى، فلا يمكن إلا أن نشير إلى مجمع "نوفاينسكى" للكيماويات، فقد انتهوا من بناء الأجنحة الإضافية لغاز النوشادر، وعمليات التركيب، والتحويل، وهذا قبل انتهاء الفترة المحددة بمدة".

قلت له إن كل ذلك يثير اهتمامى على نحو غير طبيعى، وبنفس الدرجة، لهذا بالتحديد لا أستطيع أن أختار واحداً من هذه الأماكن بسهولة. وألمحت إلى أننى كنت أود لو عثرت على

---

(١) يلصق الروس شريط ورق بالشباك ليمنعوا تسرب الهواء البارد إلى الغرف. المترجم.

موضوعات درامية من قلب المصانع والانتاج، مشكلة حامية تتكشف فيها مصائر الناس ومختلف وجهات نظرهم فى الحياة.

وقال رئيس القسم على الفور: هذه الموضوعات ستجدها أينما شئت. وانعقد على وجهه تعبير غريب مزدوج من الشجن والغطرسة فى نفس الوقت. وكان، وهو يتحدث معى يدحرج طوال الوقت بأصابعه فوق المنضدة قلماً من النوع الأجنبى.

شكرته قائلاً إننى سأفكر فى الأمر، وخرجت وفى نفس الوقت خرج معى إلى الردهة شاب كان حاضراً معنا، ملتزماً الصمت أثناء الحوار. أخذنا نهبط على السلم معاً وفجأة وجه إلى سؤالاً:

- أنت تبحث عن موضوع يهزك؟

قلت له:

- طبعاً. إنها مشكلة. أحتاج إلى موضوع يدفعنى للانفعال.. الانفعال عليه اللعنة! إنى أجد نفسى بلا أية انطباعات تحركنى. قد يبدو كلامى غبياً، لكنها الحقيقة.

وشعرت ببعض الخجل، كأننى اعترفت لأحد أننى مفلس بلا نقود ورجوته أن يقرضنى. لكن هذا الشاب كان يود مساعدتى بصدق، هذا ما أحسسته.

قال:

- إذا كنت تبحث عن موضوعات ذات أثر، فليس ضرورياً على الإطلاق أن تسـافـر إلى مكان بعـيـد.. إلى "تيـومين" أو "إيركوتسك"، أذهب إلى الأماكن القريبة "كورسك" أو "ليبتسك"، إنها لا تقل قيمة وأهمية عن سيبيريا أى والله.

سألته (وقد سعدت بينى وبين نفسى إذ أفصح بكلماته هذه

عن رأيي الشخصي):

- أتظن ذلك؟ على أية حال أنت محق، فليست المسألة في الكيلومترات..

عندما خرجت إلى الشارع كان منتصف اليوم مشمساً في عزه. في مواجهتي، عند مدخل دار العرض، وقفت زحمة من النساء، مررت من بينهن ثم استدرت إلى اليسار وتجاوزت التمثال الذي كان يقف حوله دائماً حشد من أهالي الريف بمعاطف طويلة والكاميرات بأياديهم. انحدرت في الشارع العريض وواجهني سيل ربيعي من البشر، غزير ومتماسك، يتحرك ببطء. حدقت إلى أوجه الناس التي تتعاقب أمامي بلا نهاية، ثم تختفي خلف ظهري متوارية بلا أثر فلا تلوح بعد ذلك في حياتي أبداً. وفكرت: لماذا أسافر إلى "كورسك" أو "ليبتسك"، بينما لا أعرف ضواحي موسكو كما يجب. ولمّ أذهبُ إلى "ناوفومينسك" مرة واحدة. ولا أدري شيئاً عن "ميتيشي"، بل وهناك شوارع ومناطق في موسكو نفسها لم أشاهدها إطلاقاً.

بعد نصف ساعة، كنت أهبط من "الترولي باص" قرب المنزل الذي أسكن فيه. وتوقفت عند زاوية شارع "بيشانوي الثاني"، عند محل بيع أطعمة المرضى، تلفت حولي، وشاهدت الحديقة العامة، والأشجار العارية من الأوراق، والأفرع الرمادية التي ضاعت تحت الشمس، والدكك الخشبية المتراصة دائرة حول النافورة وقد جلست مجموعة من النساء والرجال المسنين المحالين إلى المعاش، يعرضون وجوههم للشمس. جلسوا متلاصقين، كل خمسة على دكة. لم أكن أعرف أحداً منهم.

وكانت الشمس تحنو على جلودهم المجعدة المترهلة، بعضهم كان يبتسم، بينما بدت وجوه البعض الآخر وقد تجمدت فى بلادة، قسم آخر كان النعاس يغالبه.

توقفت قليلاً ثم اتجهت إلى مدخل المنزل. دخلت المصعد وارتفعت إلى الطابق السادس، هناك خرج جارى "داشنكين" من شقته المواجهة لشقتى. مد لى كفه صامتاً ليصافحنى. كفه التى ترتجف قليلاً طوال الوقت، ثم هرول هابطاً على الدرج إلى أسفل. كان متعجلاً دوماً، يمشى مقوساً كتفيه إلى الأمام، وبعينيه هم رهيب لا يخبو. كان يعمل "سمكرى" فى ورش تصليح الترموايات. اعتقدت جارته - التى تسكن معه بنفس الشقة - أنه رجل مجنون، فأبلغت عنه المستوصف النفسى تطلب أن يضعوه بالمستوصف. قبل ذلك بعدة أيام جاءتنى ورجتنى أن أكتب أنا الآخر بلاغاً مماثلاً، أو على الأقل أؤكد أنه يحيل حياة زوجته وابنته التلميذة بالسنة الثالثة إلى جحيم بمشاجرات لا تنتهى. وكانت ضوضاء الشجار بل والعراك تتناهى إلىّ بشقتى فى كثير من الأوقات، وأحياناً كانت هذه الجارة وزوجها و "داشنكين" نفسه يندفعون خارجين من الشقة إلى بسطة السلم وهم يتشاجرون ويصرخون. وقد أكدتُ ذلك. لكنى فيما بعد تذكرتُ كل هذا فجأة، وسألت نفسى: لماذا كتبتُ ذلك البلاغ؟ إن بوسعهم أن يجرجروا الرجل إلى المستوصف بالفعل؟ وحين خطر لى ذلك توجهت إلى جارتى فى نفس المساء وطلبت منها أن تعيد إلىّ البلاغ الذى وقعته، لكنها قالت لى إنها قد أرسلته بالفعل، وطمأنتنى: لن يضعوه فى المستوصف.. كل ما فى الأمر أنهم

سيخيفونه قليلاً.

لم يكن البلاغ كما هو واضح قد أحدث أثره بعد، لأن "داشنكين" عندما صافحني، شد على يدى، وأشعرني أني صديق قديم، وحين هرول هابطاً على السلم، سمعت خبط حذائه الثقيل، ثم سعاله فى الطابق الثالث أو الرابع بصوت مرتفع، وأعقبه بالبصاق. لم يكن صبره يكفيه أبداً للوصول إلى الشارع.

فتحت باب شقتى بمفتاحى ودخلتُ. كان جيرانى يطهون سمك "نافاجا" فى المطبخ. وتحتنا فى الطابق الخامس - حيث عاشت أسرة كبيرة من حوالى عشرة أشخاص - عزف أحدهم على البيانو، فوصلنى الصوت. نظرت إلى نفسى فى المرآة، وبدا لى وجهى للحظة غريباً، خاملاً، وجال برأسى أننى لا أعرف الكثير عن نفسى. ■

□□□

❖ مزمور ❖

■ ميخائيل بلجاكوف

بدا أول الأمـر أن فـأراً يخـربش البـاب. لكن صـوتـاً بشـرياً تناهى غاية فى الرقة:

- ممكن أدخل؟

- ممكن. تفضل.

صرت مفاصل الباب.

- تعال واجلس على الأريكة.

(من عند الباب)

- وكيف سأمشى على خشب الباركيه؟

- امش بالراحة، ولا تقفز. هيه.. ما آخر الأخبار؟

- لا شىء.

- اسمح لى، من كان يبكى إذن صباح اليوم فى الردهة؟

(صمت ثقيل)

- أنا بكيت.

- لماذا؟

- ماما ضربتنى.

- لماذا؟

(صمت متوتر)

- لأنى عضضت أذن شوركا.

- هكذا إذن؟

- ماما تقول إن الولد شوركا لئيم. يتحرش بى دائماً ويسلبنى

"الكوبيكات"(١).

- سيان، ليس هناك قانون يسمح لك بأن تعض آذان الناس بسبب الكوبيكات، والنتيجة إذن أنك ولد غبى.

(زعل)

- لست صاحبى.

- لا داعى.

(صمت)

- سيعود بابا، وسأقول له. (صمت) سيضربك بالنار.

- آه.. هكذا.. فى هذه الحالة لن أعد لك الشاى. ولماذا أعده ماداموا سيضربوننى بالنار فى كل الأحوال؟

- لا.. أنت جهز الشاى.

- وستشرب معى؟

- عندك حلوى ملبسه؟ هه؟

- بالتأكيد.

- إذن سأشرب.

جسمان إنسانيان اثنان. كبير وصغير - قعدا القرفصاء.. أبريق الشاى يغلى بجرس موسيقى، مخروط الضوء الكهربائى الساخن ملقى فوق صفحة من كتاب "جيروم. جيروم"(٢).

- أظن أنك نسيت القصيدة؟

- لا. لم أنس.

---

(١) الـ "كوبيك" أصغر وحدة فى العملة السوفيتية. المترجم.

(٢) جيروك. ك. جيروم - مسرحى وروائى إنجليزى معروف، اشتهر بكتاباته الساخرة. ولد فى ١٨٥٩/٥/٢، وتوفى فى ١٩٢٧/٦/١٤. المترجم.

- طيب قلها.
- سأشد.. سأشترى لنفسى حذاء..
- لبذلة السهرة، وسأغنى كل ليلة..
- مزموراً.
- مزموراً، وسأقتنى كلباً..
- ولن..
- لـ.. ـن اهـ.. ـتم..
- سنعيش بطريقة أو بأخرى..
- أو بأخرى بطريقة سـ.. نـ.. عـ.. ـيش.
- هذا هو. سيغلى الماء، فنشرب الشاى ونعيش.
(تنهيدة عميقة)
- سـ.. نـ.. ـعيش.
أزيز المياه. جيروم. البخار. مخروط الضوء. الباركيه اللامع.
- أنت وحيد.
وقع جيروم على الأرض. انطفأت الصفحة.
(صمت)
- من قال لك هذا؟
(بوضوح هادىء)
- ماما.
- متى؟
- حين كانت تحوك لك الزر.. كانت تحوك تحوك وتتكلم مع ناتاشا..
- ســسس.. انتظر، انتظر، لا تتـحـرك وإلا اندلق عليك الماء

المغلى.. أوف!
- ساخن.. أوف!
- خذ الملبسة التى تعجبك.
- أريد الملبسة الكبيرة هذه.
- انفخ فى الشاى.. انفخ.. وكف عن تحريك قدميك.
(صوت نسائى من الخارج)
- سلافا!
دق على الباب. صرير مفاصله يبهجنى.
- مرة أخرى سلافكا عندك. سلافكا، هيا إلى البيت.
- لأ.. لأ.. نحن نشرب الشاى.
- لقد احتسى الشاى منذ وقت قليل.
(صراحة ناعمة)
- أنا.. لم أشرب.
- فيرا إيفانوفنا، تفضلى شاى.
- شربت منذ قليل.
- تفضلى، تفضلى، لن أتركك..
- يداى مبلولتان.. كنت أنشر الغسيل.
(المحامى المذنب)
- إياك أن تشد ماما..
- طيب.. اتفقنا.. لن أشدها.. فيرا إيفانوفنا، اجلسى..
- انتظر، سأنشر الغسيل ثم آتى.
- عظيم. لن أطفىء موقد الكيروسين.
- سلافكا، تشرب وتروح إلى البيت. تنام. إنه يعطلك.

ـ لا أعطله. أنا لا ألعب.

صرير الباب مزعج. مخروط الضوء يتأرجح فى اتجاهات مختلفة. إبريق الشاى صامت.

ـ أترغب فى النوم؟

ـ لأ.. لا أريد. قص علىَّ حكاية.

ـ لكن عينيك مغلقتان من النعاس.

ـ كلا. لا تنغلقان، قص.

ـ طيب، تعال إلى هنا. ضع رأسك. إذن.. حكاية؟ أية حكاية أقصها عليك؟ هه؟

ـ عن الولد.. إياه..

ـ عن الولد؟ لا يا عم.. هذه حكاية صـــعـــبـــة. لكن لأجلك أقصها.. هيه.. إذن، عاش ولد فى هذه الدنيا.. هيه.. صغير، عمره حوالى أربع سنوات، فى موسكو مع ماما، كانوا ينادونه سلافكا.

ـ آه.. مثلى؟

ـ ولد جميل جداً لكنه للأسف الشديد كان مغرماً بالشجار، كان يتشاجر بأى شئ، بقبضة يده، بقدميه، بل وبالحزام. ذات يوم على سلم البيت شاف بنتاً من الشقة رقم ٨، بنتاً رائعة جداً، حلوة وهادئة، ومع ذلك ضربها على وجهها بالكتاب.

ـ هى التى تشاجر.

ـ انتظر. الكلام ليس عنك.

ـ عن سلافكا آخر؟

ـ آخر تماماً. المهم.. ماذا كنت أقول؟ آه.. وطبيعى أنهم كانوا

يضربون سلافكا هذا كل يوم، لأنه كان يتشاجر دائماً، ومع ذلك لم يرجع سلافكا إلى عقله،، ووصلت المسألة إلى درجة أنه - فى يوم بديع - تشاجر مع شوركا. أيضاً كان هناك ولد باسم شوركا. المهم، بدون تفكير كثير، انقض سلافكا بأسنانه على أذن شوركا وطلع بنصفها، وهو ما لم يحدث من قبل، وطبعاً تصاعدت الضوضاء.. الناس يضربون سلافكا فيصرخ، وشوركا أيضاً يزعق.. لكن الناس بطريقة ما ألصقوا أذن شوركا بنوع من الصمغ، أما سلافكا فعاقبوه بالوقفة فى ركن ووجهه إلى الحائط.. وفجأة - وهو واقف - رن الجرس، وإذا برجل مجهول تماماً يظهر، رجل بلحية شقراء طويلة يرتدى نظارة ذات زجاج أزرق، وسأل بصوت جهورى: "قولوا لى من فضلكم.. من هو سلافكا هنا؟" ويجيب سلافكا: "أنا.. سلافكا". فيقول الرجل: "إذن استمع إلىَّ يا سلافكا. أنا مراقب كل الأولاد الذين يتشاجرون، وسأضطر يا عزيزى سلافكا إلى إبعادك عن مدينة موسكو إلى "توركستان" ويدرك سلافكا أن العملية ليست بسيطة، فيندم من أعماق قلبه، ويقول: "أعترف.. أنا تشاجرت، ولعبت القمار عند السلم بـ "الكوبيكات"، وبدون إحساس كذبت على ماما وقلت لها إنى لا ألعب.. لكنى لن أفعل هذا مرة ثانية، لأنى سأبدأ حياة جديدة".

ويقول المفتش: "هيه.. هذه مسألة أخرى، وفى هذه الحالة لابد من مكافأتك على أسفك الصادق". وفى الحال قاد الرجل سلافكا إلى مخزن توزيع المكافآت. وهناك يرى سلافكا ما رآه البشر وما لم يروه من مختلف الأشياء. البالونات، السيارات، المطارات،

الكرات المخططة، الدرجات، الطبول. ويقول المراقب: "اختر لنفسك ما تشاء".. لكنى نسيت .. ما الذى اختاره سلافكا؟

(صوت ناعس عذب وعميق)

- الدراجة!

- بالضبط.. صحيح تذكرت.. الدراجة. وعلى الفور ركب سلافكا الدراجة وانطلق مباشرة إلى شارع "كوزنيتسكى موست" يتفسح ويضغط البوق، ويندهش الناس الواقفون على الرصيف: "يا له من شخص عظيم سلافكا هذا.. بهذه السرعة ولا يصطدم بالعربات"!

أما سلافكا فمشغول يضغط البوق منبهاً وهو يصيح فى السواقين: "إلزموا يمينكم!" وتطير عربات السائقين وسلافكا يسرع بدراجته والعساكر يمشون وهم يعزفون "مارش" مسموعاً يدوى فى الآذان..

- خلاص؟

صرير الباب، الردهة. الباب. الذراعان البيضاوان الحاسرتان إلى الكوعين.

- يا لله. دعنى أخلع عنه ملابسه.

- عودى. سأنتظرك.

- لكن الوقت متأخر.

- لا.. لا.. بل ولا أريد أن اسمع.

- وهو كذلك.

مخروط الضوء. يبدأ الابريق فى الأزيز فوق الفتيل. جيروم لا يلزم أحداً - ملقى على الأرض. فى فتحة موقد الكيروسين

الصغيرة جحيم دقيق ومبهج. سأغنى كل ليلة مزموراً، وسنحيا بطريق أو بأخرى. نعم أنا وحيد. والمزمور حزين. ليست لدىَّ المقدرة على الحياة. أكثر ما يعذب فى الحياة - الأزرار - إنها تسقط كأنها تتحلل. بالأمس هوى زر من الصدار. اليوم واحد آخر من البذلة، وآخر من ظهر السروال. ليست لدىَّ القدرة على العيش مع الأزرار. لكنى أرى كل شىء، وأفهم كل شىء. لن يعود. ولن يطلق النار علىَّ. قالت ناتاشا فى الردهة حينذاك: "عما قريب يرجع زوجى، وسنرحل إلى بطرسبورج". أبداً لن يعود، لن يعود.. صدقينى. إنه مختف منذ سبعة أشهر. ثلاث مرات بالصدفة رأيتها تبكى. والدمع كما تعرفون لا يدارى. لكنه هو وحده الذى فقد الكثير لأنه هجر هاتين اليدين البيضاوين الدافئتين. هو حر فى هذه المسألة. إلا أننى لا أفهم.. كيف استطاع أن ينسى سلافكا؟

أية بهجة يحملها صرير الباب.

اختفى مخروط الضوء. فى فتحة الموقد - عتمة سوداء - إبريق الشاى سكت منذ فترة. نور المصباح ينظر - عبر الستارة الرقيقة - بآلاف الأعين الصغيرة.

- أصابعك جميلة. كان لابد أن تصبحى عازفة بيانو.

- حين أسافر إلى بطرسبورج سأعزف من جديد.

- أنت لن تسافرى إلى بطرسبورج.. خصلات مثل هذه بالضبط تتدلى على رقبة سلافكا مثلك.. أتعرفين.. أنا مهموم. وضع موحش إلى أقصى درجة. الحياة غير ممكنة. أزرار من كل جهة.. أزرار.. أز..

- لا تقبلني.. لا تقبل.. لابد أن أمشي.. الوقت متأخر..

- لن تخرجي.. هناك ستبكين.. هذه عادتك.

- غير صحيح.. أنا لا أبكي.. من قال لك؟

- أنا عـارف.. أرى بنفـسي.. سـتـبكين.. وأنا هنا أحس الوحشة.. الوحشة..

- وماذا أفعل؟ ماذا أنت فاعل؟

ليس هناك مخروط ضوء. لا يضيء المصباح عبر الستارة الرقيقة. ظلمة. ظلمة. ليست هناك أزرار. سأشترى لسلافكا الدراجة. لن أشترى لنفسي حذاء البذلة. لن أغني المزمور كل ليلة. لا يهم. بطريقة أو بأخرى سوف نحيا.. ■

□ □ □

❖ الفاجعة ❖

■ فاسيــلى شوشكيــن

فى وقت معين من الصيف تَذيع عطور نبات الشيح حتى يوشك المرء أن يفقد عقله. يسود الهدوء ويشع ضوء القمر بينما يغمر روحك قلق مضن.

فى تلك الليالى الرحبة المضيئة، وفى ذلك الجو المشبع بعطر لاذع يحلو للمرء أن يسرح بأفكاره فى حرية وجرأة.. ولعله لا يسرح وإنما تتملكه أنواع من الرؤى ويحتشد فى نفسه شعور الترقب لشيء ما.

اختفيتُ بين الأعشاب خلف بساتين الخضروات، وقلبى ينوء بسرور مبهم لا أعرف له سبباً، خسارة.. إن هذه الليالى قليلة فى حياتنا. ليلة من ذلك النوع انطبعت فى ذاكرتى مدى الحياة. كان عمرى حينذاك اثنى عشر عاماً. جلستُ فى البستان عاقداً ذراعى حول ركبتى وأنا أحدق إلى القمر بثبات حتى طفر الدمع من عينيي. فجأة.. سمعتُ صوتاً غير بعيد لإنسان يبكى بهدوء. التفت مستديراً فرأيت جارنا العجوز نيتشاى. إنه هو.. نحيف صغير الجسم يمشى فى قميص طويل من الخيش ويبكى متمتماً بأشياء غير مفهومة. لقد ماتت زوجته "براسكوفيا" منذ ثلاثة أيام مضت. كانت عجوزاً هادئة الطبع وديعة. عاشا وحيدين تماماً بعد أن تفرق أبناؤهما. وعاشت الجدة براسكوفايا لا يشعر بوجودها أحد، كذلك لم يشعر بموتها أحد حين فارقت الحياة. عرفنا بموتها ذات صباح، وأخذ الناس يرددون:

"براسكوفيا.. العزيزة.. تصوروا؟".

حفروا لها قبراً، أنزلوها فيه، أهالوا عليها التراب.. وانتهى كل شيء.

نسيت الآن هيئتها. كانت تدور حول السور تصيح على الدجاج: "تسيب ـ تسيب ـ تسيب". لم تتحرش بإنسان فى القرية أبداً، ولم تسب أحداً قط. كانت موجودة، ثم اختفت. ذهبت عن عالمنا.

فى هذه الليلة المضيئة الجميلة، أدركت وطأة ما يحسه المرء حين يصبح وحيداً، حتى حين يلفه هذا الجو الرائع والدفء والأرض الأم التى لا تبعث على الخوف.

تواريتُ.

كان قميص العجوز طويلاً يصل إلى ما بعد ركبتيه، أبيض باهر البياض فى ضوء القمر. أخذ يمشى ببطء وهو يجفف عينيه بكمه العريض. كنت أشاهده بوضوح من مكانى فقد جلس غير بعيد.

ـ طيب.. سأهدأ الآن.. ونتحدث بالراحة ـ قال العجوز بهدوء وهو غير قادر على وقف دموعه ـ اليوم الثالث لعذابى، لا أدرى ما أفعل بروحى. أسقط فى يدى.. افعلى أى شىء.

سكن قليلاً.

ـ يا للمرارة يا بارسكوفايا.. لماذا لم تنطقى بكلمة فى اللحظة الأخيرة؟ هل كتمت عنى زعلاً؟ لو كنت بحت لى لصار الأمر أهون.. أما الآن فإننى أفكر.. آخ.. آآه.. ـ سكت ـ غسلناك وكفناكِ مثل أحسن الناس. جهز لكِ العراب سيرجى نعشاً جيداً.

صحيح كان الناس قلة. أعددنا وجبة الأرز بالسكر. وأريناكِ عند طرف المقابر حيث ترقد "دابوفني".. في منطقة جافة.. حسنة، ونظرتُ لنفسي مكاناً هناك. لست أدري ماذا أفعل بنفسي وحدي؟ هل أغلق الكوخ بالمسامير وأسافر إلى إبني "بيتيا"؟ إن كان على إبني فإنه لن يعترض، لكن امرأته.. أنتِ نفسك عارفه أنها لن تتفوه بشيء لكن اللقمة ستقف في حلقها. السفر خطر إذن.. يا للمصيبة! بم تنصحيني؟

ساد الصمت.

وتملكني الخوف. توقعت أن الجدة باراسكوفايا ستنطق الآن بصوتها الحنون الصابر.

استمر الجد نيتشاي:

ـ أضربُ أخماساً في أسداس.. عند من أعيش؟ يا رب حبلاً أشنق به نفسي وأستريح. ليلة البارحة نعست شوية وشاهدتك كما لو كنت تدورين حول السور تحملين بيضاً في غربال.. دققت النظر فوجدت أنه ليس بيضاً، لكن كتاكيت صغيرة صاحية. وبدا لي أنكِ تلتهمينهم واحداً بعد الآخر. تأكلين وتمتدحين مذاق الكتاكيت! يا إلهي.. يا للرعب. استيقظتُ وأردت أن أنبهك لتفيقي من نومك ناسياً أنك لم تعودي موجودة. يا باراسكوفيوشكا يا حبيبتي.. فلتمس كلماتي روحك ذاتها.

وطفق الجد نيتشاي ينوح بصوت مرتفع مرة أخرى.

حينئذ دب الصقيع حتى في عظامي.

صار يعوي بطريقة غريبة، منخرطاً في أنين ممتد:

ـ هيه.. هيه.. أوو.. ذهبتِ عني.. وما فكرت.. أين أذهب أنا..

آه.. لماذا لم تتكلمى؟ لكنتُ قد استدعيت طبيباً من المدينة.. يشفى الناس على أياديهم.. لم تنطقى بشىء.. رقدت ومت! يمكننى أنا الآخر أن أفعل ذلك.

تمخط نيتشاى، جفف دمعه وتنهد:

- هل ذلك صعب عليك يا باراسكوفيوشكا؟ هل ترغبين فى العودة إلينا هنا؟ إنك تترددين علىَّ فى نومى.. تعالى لى فى أحلامى، تعالى ولو باستمرار لكن فى صورة طبيعية.. يعرف الشيطان وحده ما هى حكاية الكتاكيت فى الحلم الأخير..

هنا بدأ العجوز يهمس بكلامه، فلم التقط نصف ما قاله.

- بل كدت أقدم على الحرام.. وما فى هذا؟ تقع مثل هذه الحوادث، أنا سمعت بذلك، يدفنون الشخص ويتضح أنه لم يمت. فى قرية "كراى أوشكين" دفنوا امرأة لكنها أخذت تئن فنبشوا القبر وأخرجوها. فى الليلتين المنصرمتين.. كنت أطوف حول قبرك.. أرهف السمع لكنى لم أستمع إلى شىء.. وكنت قد حزمت أمرى بالفعل.. يقولون إن نوماً ثقيلاً يجثم على الإنسان فى بعض الحالات.. ويفكر الناس جميعاً أنه توفى وهو لم يمت.. بل نائم فقط؟

عند هذا الحدارتعبت إلى أقصى درجة.

شرعت أزحف.. وأزحف.. هارباً من بستان الخضروات. وانطلقت أجرى إلى بيت جدى. حكيت له كل شىء. ارتدى جدى ملابسه، وعدت معه نقطع نفس الطريق.

سألنى جدى مدققاً:

- هل بدا أنه يكلم نفسه.. أم كأنما يتحدث معها؟

- بل كان يتحدث معها، وجعل يسألها النصيحة كي تدله على ما يفعل.

- سوف يُجن ذلك التيس العجوز. لا تستبعد أن ينبش القبر فعلاً. يجوز أنه شارب خمرة؟

- لا، إنه حين يسكر يغني وينبسط ويتذكر ربه.

كنت أعرف ذلك.

حين تناهى وقع خطواتنا إلى نيتشاى لزم الصمت.

صاح جدي بشدة:

- مَن هنا؟

مر وقت طويل ونيتشاى لا يجيب.

- من هنا! إني اسأل؟

- ماذا تريد؟

- أهو أنت، نيتشاى؟

- نعم..

اقتربنا منه. كان الجد نيتشاى جالساً على الأرض متربعاً على الطريقة التترية. رفع عينيه متطلعاً إلينا من تحت. كان مستاءاً للغاية.

سأله جدي:

- من كان هنا سواك؟

- أين؟

- هنا.. لقد سمعتك.. كنت تتكلم مع شخص آخر.

- هذا ليس شغلك.

- طيب.. سأعثر على نبوت جامد أطاردك به الآن حتى باب

بيتك لتجري فلا تبص خلفك. رجل عجوز.. وتجن؟ ألا تستحي؟

- إني أخاطبها هي.. ولا أضايق أحداً..

- مع من تتحدث. إنها لم تعد موجودة، وليس هناك من تتحدث معه.. ماتت وواريناها التراب.

- بل إنها تتكلم معي.. وقد سمعت صوتها - أخذ نيتشاي يعاند - لا داعي لتعطيلنا.. ما الذي دفعكم إلى الحضور إلى هنا والتصنت علينا؟

- طيب فلنذهب..

قال جدي وهو يرفع العجوز من على الأرض، وأردف:

- لنمش إلى بيتي، عندي هناك زجاجة فودكا منزلية، سنشرب وتخف عنك همومك..

لم يمانع الجد نيتشاي في السير معنا. قال يكلم جدي:

- ما أصعب وضعي أيها العراب. لم تعد بي قوة.

ثم مضى بعد ذلك أمامنا وهو يتخبط في مشيته ويجفف دمعه بأكمام قميصه طول الوقت. رحت أتابعه ببصري من الخلف وهو يتحرك أمامي.. ضئيلاً، قصير القامة، قضت عليه الفاجعة. انهمرت دموعي أنا الآخر، بكيت بصوت خافت حتى لا يسمعني جدي ويصفعني على قفاي. أحسست الشفقة على الجد نيتشاي. كان جدي يهون عليه:

- من حياته سهلة؟ من الذي يهون عليه دفن إنسان حبيب في التراب؟ فإذا رقد الجميع من المصيبة إلى جواره.. فكيف ستسير الحياة؟ حدق فيّ.. كم مرة كان لابد أن أموت فيها؟ تحمل. تماسك وتحمل.

ـ خسارة، [illegible]

ـ طبعاً خسارة.. لا يقال إلا ذلك، ولكن ليس فى وسعك الآن مساعدتها بشيء. فقط تعذب نفسك. ومحتمل أن تموت. تماسك.

ـ أجل أعرف ذلك.. لكن قلبي احترق، لا شيء الآن يطفيء ناري. حاولت أن أجرع الخمر، لكن نفسي لا تتقبل شيئاً.

ـ ستتقبل. لماذا لم يجيء إبنك بيتيا إليك ليحضر الدفن؟ بالنسبة لابنك الآخر فإن المسافة بينكما طويلة، لكن بيتيا..؟

ـ مسافر في مأمورية. يا للشقاء.. أيها العراب.. عمرى ما فكرت أنها ستموت.

ـ هكذا نحن دائماً.. يعيش الإنسان بيننا ويبدو وكأن هذا هو الوضع الطبيعي ولابد أن يستمر.. فإن مات نتحسر عليه. أجل.. لكن أن يُجن الإنسان من الكارثة فهذه أيضاً حماقة.

فى هذه الدقائق تبددت منى الليلة الهادئة الصافية، ولم تعد تساورني أية خيالات، وانقضت تلك السعادة المضيئة، غير المفهومة. وأسدلت أشجان هذا الإنسان النحيف قصير القامة ستاراً على العالم الجميل. أذكر فقط أن نباتات الشيح كانت كما من قبل تذيع فى الجو رائحتها الحادة والمرة.

استضاف جدى العجوز نيتشاى ليبيت عندنا. هناك رقدا على الأرض متجاورين، وتغطيا بمعطف من فرو الخرفان.

قال له جدى:

ـ سأحكى لك حادثة واحدة..

وبصوت هادىء أخذ جدى يقص:

ـ أنت لم تحارب يا نيتشاى ولا تعرف ما جرى.. كانت الحالة

حينذاك أفظع بما لا يقاس يا أخي، اسمع هذه القصة. كنت أخدم في الجيش ممرضاً أقوم بنقل الجرحى إلى المؤخرة، وذات يوم.. كانت عربتنا الضخمة "ستوديو بيكر" تنهب الأرض، مكتظة بالجرحى الذين تصاعدت أصواتهم بأناتهم وهم يرجون السائق أن يسير ببطء. وكان السائق نيكولاي إيجرينيف من نفس عمري. حاول أن يقود السيارة بسرعة مناسبة ومعقولة، ذلك أن المبالغة في التمهل كانت مستحيلة، لأن قواتنا كانت تنسحب وقتها ونحن معها. المهم أننا مضينا نقترب من مفارق طرق، ورأينا على بعد أمامنا، عربة صغيرة واقفة وإلى جوارها ضابط يلوح بيديه وهو يصيح:

- قف.. أقول لك قف..

وكان قد صدر لنا أمر صارم: لا تتوقفوا، ولو طلب ذلك الشيطان ذو القرنين شخصياً. كانوا على حق.. ما يزال كثير من الأحياء يرقدون هناك.. قل لو كان جيشناً في حالة هجوم لهان الأمر.. أما ونحن ننسحب؟ المهم مررنا قرب العربة الصغيرة مواصلين طريقنا. لكن العربة الصغيرة انطلقت تلاحقنا حتى تقدمتنا، وخرج منها الضابط ووقف في منتصف الطريق ومسدسه في يده. لم يكن بوسعنا أن نقوم بشيء، فتوقفنا. اتضح أن ثمة ضابطاً جريحاً يجلس في العربة الصغيرة، وأرادوا أن ينقلوه لإسعافه ولم يكن في استطاعة الضابط صاحب المسدس أن يوصله هو، لأن عليه أن يسلك الطريق المعاكسة. استطعنا بطريقة ما أن نحشر الجريح في جوف عربتنا المكتظ بمعاونة الضابط الآخر. في ذلك الوقت كان

نيكولاى السائق يجلس فى كابينة القيادة إلى جوار نقيب جريح جلس شبه راقد، وكان نيكولاى المسكين يمسك بعجلة القيادة بيد، ويسند النقيب الجريح بالأخرى. أما الشخص الذى ساعدناه على صعود سيارتنا، فكان مسكيناً، وكان من الواضح أنه لم تبق أمامه إلا ساعات معدودة يقضيها فى هذه الدنيا. كان رأسه غارقاً فى دم جاف. شاب صغير، برتبة ملازم. لعله بدأ يحلق ذقنه من زمن بسيط. حملت رأسه، ووضعتها على ركبتى، قلت لعلنى بذلك أساعده.. لكن تساعد من؟

وصلنا إلى المستشفى العسكرى، وهناك شرعنا فى إخراج الجرحى من السيارة..

سعل جدى، وصمت. أشعل سيجارة وواصل:

- جعل نيكولاى يساعدنى فى إخراج الجرحى، ناولته الملازم، وقلت له: " هذا الشاب انتهى.. خلاص" فتطلع نيكولاى إلى وجه الملازم.. هيه..

أطبق الصمت مرة أخرى. سكتا طويلاً.

سأل نيتشاى بصوت خافت:

- ترى أكان الملازم هو ابن نيكولاى حقاً؟

أجاب جدى:

- نعم ابنه.

- يا إلهى!

- هووف..

تمخط جدى، وأخذ يسحب أنفاساً من سيجارته عدة مرات متعاقبة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- دفناه.. وأعطى رئيس الكتيبة إجازة أسبوع لنيكولاى الذى سافر إلى قريته. هناك.. لم يخبر زوجته أن ابنها مات. أكثر من هذا أخفى نيكولاى كل الوثائق التى تخص ابنه حتى الوسام الذى منحوه له، ومكث فى القرية أسبوعاً ثم رحل.

- ولماذا لم يخبرها؟

- يخبرها؟! هكذا على الأقل سيظل لديها أمل.. أما لو قال لها لانتهى بذلك كل شىء. لم يستطع أن يقول لها. عدة مرات شاء أن يكلمها. ولكنه لم يستطع.

تنهد نيتشاى مرة أخرى:

- يا إلهى.. يا إلهى.. وهل ظل نيكولاى على قيد الحياة؟

- نيكولاى؟ لا أعرف.. فرقتنا الحرب، ووزعتنا فى أماكن مختلفة.. هذه هى القصة. ابن الإنسان! هل هذا هين؟ وخاصة إذا كان شاباً صغيراً؟!

لزم العجوزان الصمت.

كان ضوء القمر المهيب، الساكن، ينسكب، وينسكب فى الشبابيك. كان القمر منيراً! وسيان أفرحة كانت على الأرض أم فاجعة.. يظل القمر مضيئاً ■

□ □ □

❖ هواجس ❖

■ فاسيلي شوشكين

هكذا كل ليلة.. لا تكاد القرية تهدأ قليلاً ويتأهب الناس للنعاس حتى يشرع هذا اللعين في الحركة، يقبل من أطراف القرية يدنو، ويدنو وهو يعزف على أوكورديون من نوع خاص، لا يصدح، لكن يولول.

وقد نصحوا نينا كريتشينوفا:

- تزوجي منه بسرعة. يا للشيطان.. إنه لا يدعنا نحيا في هدوء!

وابتسمت نينا بسمة ملغزة:

- ناموا ولا تنصتوا إليه.

- عن أي نوم تتحدثين وهو يمط الأوكورديون تحت الشبابيك مباشرة؟ ويا ليت شيطانك العاشق كان يذهب إلى ناحية النهر، لكنه لا يفعل.. وإنما يتفنن هنا.. كأنما يتعمد ذلك.

أما كولكا مالاشكين، الضخم، غليظ الشفتين، فقد قال ونظرة وقحة تطل من عينيه الصغيرتين:

- هذا حقي، ليس في القانون بند يعاقب على العزف.

في هذا المكان بالتحديد، حيث خرج كولكا من الزقاق منعطفاً إلى الشارع، قام البيت الذي يسكن فيه ماتفي رزانتسيف، رئيس المزرعة التعاونية في القرية.

وهكذا، كان يرتفع عويل الأوكورديون في الزقاق ويمضي فيلتف حول البيت ويظل مسموعاً فترة طويلة.

وقد اعتاد ماتفي ـ بمجرد أن يرن الأوكورديون في الزقاق ـ أن يجلس على سريره ويمد ساقيه إلى الأرض قائلاً:

ـ بس. غداً سأرفته من الكلخوز، سأتمحك في أي سبب وأرفته.

كان ماتفي يكرر هذه الكلمات كل ليلة، لكنه لم يرفت كولكا أبداً. فقط كان يسأله إذا التقى به في النهار:

ـ هل ستظل طويلاً تتسكع بالليل؟ الناس يلتمسون الراحة بعد عمل طوال النهار، لكنك توقظهم كأنك قارع ناقوس في كنيسة؟

ويرد كولكا كعادته:

ـ هذا حقي!

ـ طيب.. سأريك حقك هذا.. سأجده لك.

عند هذا الحد كان الحوار ينتهي بينهما. ويعود ماتفي ليقسم كل ليلة وهو جالس على سريره: "غداً سأرفته". ويجلس مدة سارحاً مع أفكاره. وحتى بعد أن يغيب صوت الأوكورديون بعيداً في الشارع ويصبح غير مسموع يظل ماتفي جالساً فترة، ثم يمد يده إلى جيب سرواله الملقى على الكرسي، يتجسسه حتى يعثر على علبة سجائره فيخرجها ويشعل لنفسه سيجارة. وتتمتم آلينا زوجته متذمرة: "كفاك هذا القطران"، فيرد عليها باقتضاب: "نامي..". وتسرح أفكاره.. فتتراءى له صور غائمة متناثرة من حياته لا يربطها شيء.

وذات ليلة من تلك الليالي التي أضاءها القمر، رن صوت الأوكورديون، وانسكبت عبر النافذة المفتوحة مع النسيم العليل

رائحة نبات الشيح المرة المنبعثة من البستان. وتجسدت أمام ماتفى بوضوح ذكرى ليلة سوداء من حياته الماضية..

يذكر كان مع أخيه الأصغر "كوزما" بصحبة والدهما، وتوجهوا معاً لجمع المحصول بعيداً عن قريتهم بخمسة عشر كيلو متراً. فى تلك الليلة تحشرج صوت كوزما أول الأمر، فقد عب من مياه النبع الباردة بالنهار فى عز الحر وكان العرق يغطيه. وعند حلول الليل انسدت حنجرته تماماً. يتذكر ماتفى أن أباه أيقظه وطلب منه أن يقفش أسرع الخيول المسمى "إيجرنكو"، ويدفعه للانطلاق بأقصى سرعة على الطريق إلى قريتهم ليجلب كمية من اللبن لأخيه الأصغر.

قال له أبوه:

- سأضرم النار فى الحطب حتى تعود باللبن فنغليه. لابد أن نسقى أخاك لبناً ساخناً وإلا مات بين أيدينا.

انطلق ماتفى، وجعل يرهف السمع حتى خمن المكان الذى يرعى فيه الحصان، وهناك تمكن من تلجيمه ثم انهال على جانبيه بسوط من شعر مجدول يستحثه على بلوغ القرية بأقصى سرعة.

حينذاك لم يكن ماتفى قد تجاوز الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة، وعلى الرغم من أنه سيبلغ الستين عما قريب، فإن تلك الليلة مازالت حية فى ذاكرته.

اندغم ماتفى فى الحصان وصارا كتلة واحدة طائرة فى ليل أسود اندفع نحوهما، وراحت رائحة كثيفة من الأعشاب الرطبة تضرب وجهيهما بشدة. واندفع الدم يطن فى رأس ماتفى،

واستولت عليه نشوة وحشية.. ما أقرب ذلك إلى التحليق! وشعر الصبى كأنه انفصل عن الأرض، وعلا طائراً، لا يرى شيئاً من حوله.. فلا أرض.. ولا سماء.. ولا حتى رأس الحصان، كان الطنين يدوى ملء أذنيه، وقد تزحزح راكضاً للقائه عالم الليل المهول. ولم يرد إلى عقله إطلاقاً فى تلك اللحظة أن أخاه كوزما يرقد مريضاً هناك، بل وما عنت له أية فكرة أخرى. لقد اتقدت الفرحة العارمة فى روحه وانتفض كل عصب مبتهجاً فى جسده.. يا له من ومض عزيز لشعور لا يتكرر وسعادة فوق الاحتمال.

بعد ذلك حلت الكارثة، حين عاد باللبن إلى أبيه، فوجده يهرول حول شعلة النار وقد ضم أخاه إلى صدره وهو يتمتم مهدهداً: "يا ابنى.. ما بك؟ تحمل قليلاً، شوية بس، سنغلى لك اللبن فتتنفس، يا ابنى يا حبيبى.. ها هو ماتفى قد جاء باللبن".. لكن كوزما الصغير كان أزرق، مختنقاً. وبعد وصول ماتفى بقليل جاءت أمه، لكن كوزما كان قد مات.

جلس أبوه جاعلاً رأسه بين يديه، مطوحاً نصفه الأعلى وهو يئن بصوت خافت مديد.

وحطت على ماتفى دهشة وفضول وهو يتفرس مستغرباً فى أخيه الذى كان حتى الأمس فقط يلعب معه فوق الدريس.. إنه يرقد الآن أمامه جسداً غريباً لا يكاد يتعرف إليه. جسد أبيض تشوبه الزرقة.

لكن.. كيف بعث الأوكورديون اللعين فى ذاكرته تلك الليلة، وكل ما جرى فيها؟ ما أعجب هذا.. ألم تمتد بعد ذلك الحادث

حياة طويلة حافلة؟ عرس الزواج، تعميم المزارع التعاونية فى الريف، الحرب، وغير ذلك من الليالى التى لا تنسى؟ كل هذا يبدو وكأنه بهت، وامحى من الذاكرة.

طوال حياته تلك نهض ماتفى بأعبائه التى كان عليه أن ينهض بها، حين قالوا له لابد من الذهاب والعمل فى المزرعة التعاونية، ذهب. وحين حانت السن التى يتزوج فيها الناس عادة، تزوج من "آليونا" وأنجبت له الأطفال الذين كبروا. وحين وقعت الحرب، مضى ليحارب. وحين رجع إلى قريته بسبب جراحه قبل عودة الجنود الآخرين، قالوا له: "ماتفى.. كن رئيس المزرعة.. ليس هناك سواك"، فأصبح رئيس المزرعة، ومثلما انخرط فى عمله معتاداً عليه، ألف الناس وجوده. منذ ذلك اليوم وهو يشتغل بهذا العمل الرتيب، العمل، العمل، العمل. لم يكترث طيلة حياته إلا به، حتى سنوات الحرب انقضت هى الأخرى فى العمل. وكان العمل محور مشاغله كلها، وأفراحه وأحزانه، حتى أنه حين سمع كلمة "الحب" تتردد من حوله، لم يدرك ما هو المقصود بتلك الكلمة على وجه الدقة. بالطبع كان يعلم أن "الحب" عاطفة موجودة فى هذه الدنيا، بل ومن غير المستبعد أن هذا "الحب" هو ما أحسه نحو آليونا زوجته التى كانت جميلة للغاية فى شبابها.

لا.. لا يدعى ماتفى أنه يعرف شيئاً - أكثر من ذلك - عن "الحب"، بل إنه يظن أن الآخرين يتظاهرون، لا أكثر، بالحب، فيغنون أغانيه، ويصطنعون الشقاء. الأغرب من ذلك أنهم حسب ما سمع ينتحرون.لعلهم لا يتظاهرون وإنما هى عادة ألفوها أو شىء من هذا القبيل؟ لابد أن نتكلم عن الحب.. طيب.. فلنتكلم

عن هذا، بينما المشكلة الحقيقية أن الناس لابد أن يتزوجوا. وترى هل كولكا عاشق حقاً؟ لا شك أن نينا تعجبه فهى بنت عفية ومكتنزة الجسم، لكنه من ناحية أخرى فى سن الزواج، ولذلك يتسكع هذا الأحمق ويعزف الأغانى بالليل. ولم لا يذرع الشوارع بالليل؟ أليس شاباً يحس بالقوة تتأجج فى روحه؟ هذه حال الدنيا. الحمد لله أنهم لا يتضاربون بالأيادى بسبب البنات. كان الشبان يفعلون ذلك فيما مضى. ماتفى نفسه تشاجر عدة مرات، كان قوياً والرغبة فى العراك تسرى فى قبضتيه.. طاقة لابد من تصريفها.

أثقلت على ماتفى خواطره تلك، فأخذ وهو جالس على السرير يهز زوجته النائمة من كتفها:

- آليونا.. أتسمعين؟ استيقظى.. أريد أن أسألك سؤالاً..

اندهشت آليونا:

- ما بك؟

- هل وقعت يوماً فى الحب؟ حبى أو حب رجل آخر.. أى رجل؟

ظلت أمارات الدهشة تعلو وجه آليونا فترة وهى راقدة، ثم قالت له:

- أنت سكران يا رجل؟ ماذا جرى لك؟

- إنى أسألك، هل شعرت نحوى بالحب فتزوجتنى، أم تزوجت لأنه لابد من الزواج؟ إنى أسألك جاداً!

حينذاك، أدركت آليونا أن زوجها ماتفى ليس مخموراً، وعلى الرغم من ذلك التزمت الصمت مرة أخرى، لأنها لم تدر ماذا

تقول له؟ لقد نسيت. صاحت به:

- من أين تسللت إلى رأسك هذه الأفكار؟

- شيء واحد أردت أن أفهمه، لعنة الله عليه، شيء يجثم على قلبي، ويقلقني، لا أدري لماذا، كأنه مرض.

قالت آليونا محاولة إقناعه:

- طبعاً أحببتك! لو أني لم أحبك ما تزوجت منك. ألم يلهث ورائي حينذاك كارلوف؟ لكني لم أتزوجه. ثم قل لي ما الذى جعلك تتذكر الحب وسط الليل؟ هل بدأت تخرف؟

اغتم ماتفي:

- نامي، الأحسن أن تنامي.. ربنا يأخذك!

- نسيت أن أقول لك.. سرّح البقرة لترعى غداً، لأني اتفقت مع النسوة أن نمشي قبل أن تنور الدنيا لنجمع الثمار.

انتبه ماتفي:

- أين؟

- لا تفزع، لن نذهب إلى بساتين الحكومة.

- لو ضبطتُ واحدة منكن هناك سأغرمها عشرة روبلات.

- نحن نعرف مكاناً لم يبدأ فيه الحصاد بعد، والثمار هناك حمراء غاية الاحمرار.. المهم لا تنس أن تسرّح البقرة.

- طيب.

ولكن.. ما الذى جرى فى تلك الليلة حين ذهب فى طلب اللبن لأخيه "كوزما"؟ ما الشيء الذى يجعل تلك الليلة تمسك بخناقه وتلح بذكراها عليه؟ لعلني أختبل، فالناس حين يشيخون يخرفون. وحزن ماتفي لذلك الخاطر.

ولم يهدأ ألم المرارة التي تخللت روحه. وانتبه ماتفي إلى أنه ينتظر مرور كولكا، ويترقب سماع آلته الشجية، وأنه كلما انقضى الوقت دون مرور كولكا تضاعف قلقه، حتى أنه امتلأ بالحنق على نينا واغتاظ منها "هل من المعقول أن تتركه هذه الفحلة العفية ينصرف بسرعة؟".

ظل جالساً يدخن ينتظر مرور كولكا وصوت الأوكورديون الشجي.

ها هو الصوت يرن من بعيد في الزقاق، فيتصاعد الألم في قلب ماتفي، لكنه في هذه المرة ألم من نوع آخر، عذب وعجيب، يشعر الإنسان بدونه أن شيئاً ينقصه.

وتراءت له من ذكرياته أصباح أيام أخرى: وهو يمشي حافياً على أعشاب ندية يطأها بقدميه فتحمل أثرهما، أعشاب خضراء، شديدة الخضرة، يخز باطن قدميه منها برد الندى، بل إنه ما كاد يتذكر ذلك حتى أحس البرد يسري فيهما.

وخطرت له فكرة الموت فجأة. "قريباً تحل النهاية"، طرأت له الفكرة من دون رعب أو ألم، مصحوبة بالدهشة وحدها "سيحملونك إلى القبر، ويوارونك التراب"، هذا واضح ومفهوم. وسيظل كل شيء على ما هو عليه؟ هذا هو ما يصعب على الفهم! كيف سيظل كل شيء على ما هو عليه؟ طيب نفترض أن الشمس ستظل تشرق وتغرب كل يوم، هذا مفهوم وهي حالها منذ الأبد، لكن الناس؟ بشر جدد سيعيشون في القرية، بشر لن تتعرف إليهم أبداً، هل يعقل هذا؟! لا.. إنه أمر يستعصي على الفهم. سيظل أهل القرية يتذكرونك عشرة أعوام، قل خمسة

عشر عاماً، يتذكرونك ويرددون أن رجلاً اسمه ماتفى كان يعيش هنا، ثم ماذا؟ سيحل يوم تنفض فيه هذه السيرة. كم وددت لو أعرف أى إناس سيظهرون ويعيشون هنا. لا.. ليس هناك ما اتأسف عليه، شبعتُ من التطلع إلى الشمس بما فيه الكفاية، وتنزهت فى الأعياد فى حدود المعقول، بل وعشت بعض الأوقات المفرحة. لا.. ليس هناك ما اتأسف عليه، لقد رأيتُ الكثير فى هذه الدنيا، لكن ما أكاد أفكر فى أنى لن أصبح موجوداً، وأن آخرين سيواصلون الحياة بينما أكف أنا عن الوجود؟ ترى.. هل سيحسون بالفراغ من بعدى؟ أم ستمشى الحال؟ تفو! لابد أننى أخرف. لقد تعبت من هذه الأفكار والهواجس.

أيقظ زوجته:

- آليونا.. أتسمعين؟ آليونا.. أفيقى يا امرأة. هل تخافين الموت؟

صاحت متذمرة:

- هل جننت يا رجل؟ من الذى لا يهاب الموت حصّاد البشر؟
- أنا. أنا لا أخشى الموت.
- نم إذن. لماذا تفكر فى الموت؟ نم إذن ودعنى أسترح.

عاودته مرة أخرى ذكرى تلك الليلة السوداء الصماء، وهو طائر على الحصان فشعر بالقلق والعذوبة يعتصران قلبه. لا.. مع ذلك ثمة شىء فى هذه الحياة، شىء يأسف الإنسان عليه، بلا حدود، وحتى البكاء.

***

فى ليلة أخرى، نفد صبر ماتفى بعد طول انتظار أوكورديون كولكا. جلس وشرع يدخن. ومن جديد طال انتظاره وترقبه دون أن يرن صـــوت الأوكـــورديون الشـــجى. ولم يطق مـــاتفى ذلك الانتظار الممض وتكدر مزاجه إلى أقصى درجة. وحين انتشر نور الفجر أيقظ ماتفى زوجته وسألها:

- ماذا جرى لقارع النواقيس؟ لا حس ولا صوت؟

- كـولكا؟ لقـد بدأ اجـراءات الزواج.. والعـرس يوم الأحـد القادم.

غمرت الكآبة ماتفى. ورقد معتزماً النوم، لكنه لم يتمكن. ظل يطرف بعينيه فى السرير حتى فاض الضوء فى الحجرة. ود لو يتذكر شيئاً من حياته، لكن شيئاً لم يرد إلى عقله على الإطلاق، بل انثالت إليه مشاغل المزرعة التعاونية: يقترب موسم الحصاد فى حين أن نصف آلات الحصاد والأجزاء الملتوية من العربات مركونة على حالها عند الحدّاد الأحول "فيليا"، و "فيليا" لا هم له إلا التنزه.. والآن، وعرس كولكا قادم، فإن الحداد سيعب الخمر طويلاً حـــتى يرتوى فى ذلك العـــرس. أى يمكن أن نقـــول إن أسبوعاً آخر بأكمله سيضيع. لا.. لابد من الكلام مع "فيليا" بهذا الصدد.

***

فى اليوم التالى التقى ماتفى بكولكا غليظ الشفتين، فابتسم ماتفى بسخرية قائلاً له:

- إيه يا أخانا.. هل شبعت من العزف ليلاً؟

انفرجت شفتا كولكا عن بسمة عريضة وصلت ما بين أذنيه

وقال:

ـ خلاص يا ماتفى إيفانوفيتش. لن أوقظك بعد ذلك فى الليل. رسوت بمركبى.

قال ماتفى:

ـ طيب.. طيب.

وانصرف ماتفى إلى أعماله وهو يقول لنفسه: "ولماذا أنت سعيد هكذا؟ أيها الثور، من الآن فصاعداً ستمسك بك نينا من قرنيك. هكذا هن النسوة".

ومر أسبوع بعد ذلك.

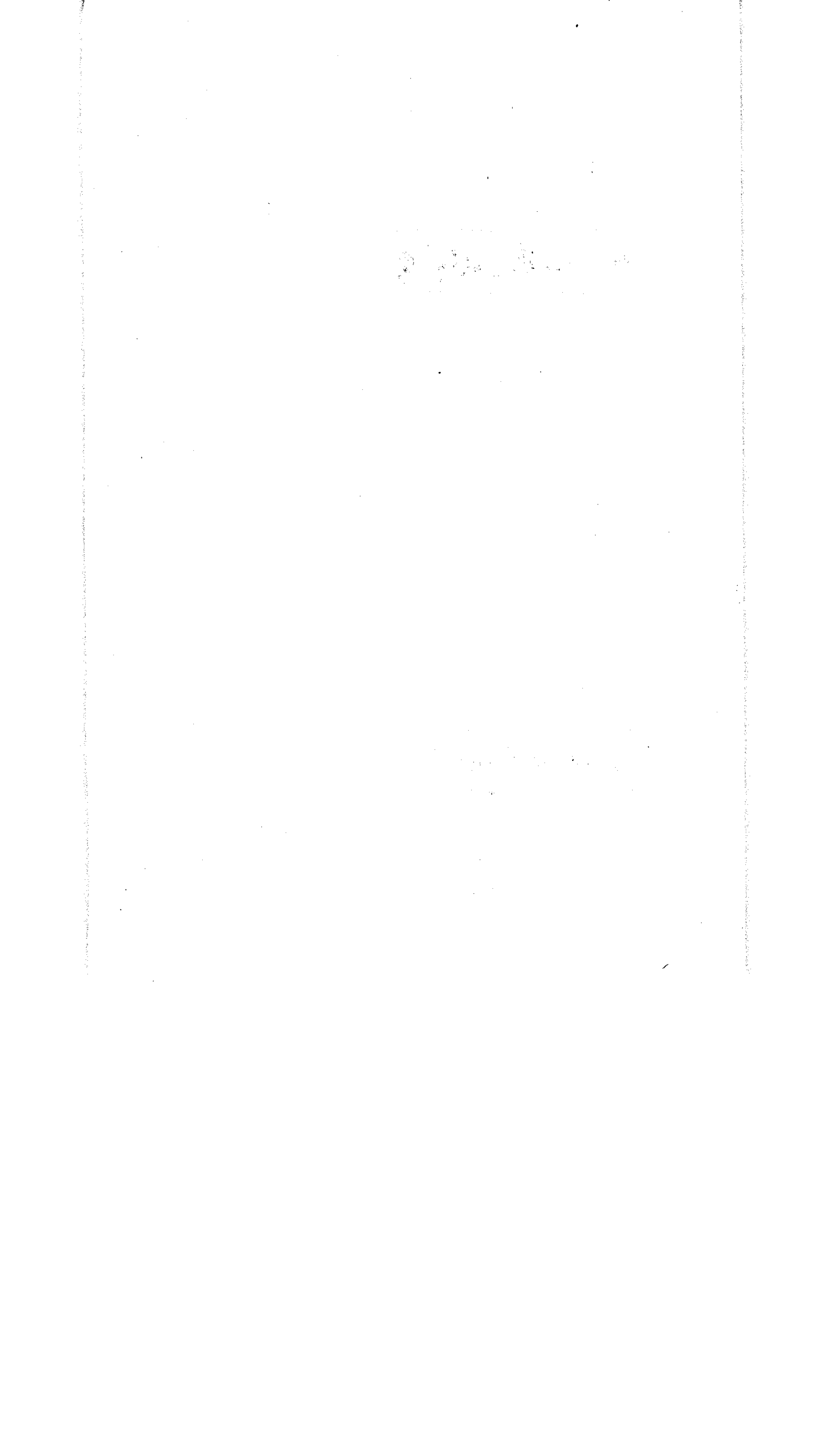
لم يكف ضوء القمر السيال عن الانسكاب فى النوافذ ليلاً، وفاحت بحدة من البستان رائحة الشيح وأوراق حبات البطاطس النامية.. وعم الهدوء المكان.

نام ماتفى نوماً مضطرباً، ثم صحا وراح يدخن. أخذ يتمشى أمام مدخل البيت. وشرب كوباً من سائل "الكفاس"، ثم جلس على عتبة السلم تحت سقيفة البيت. وشرع مرة أخرى يدخن سيجارة. وكانت القرية منيرة بينما سادها صمت مرعب ■

❑ ❑ ❑

❖ غليون الجندي ❖

■ ايليــا ايرنبــورج



يظل ضوء النجمة الهادئ سارياً ألوف السنين قبل أن يبين للبشر، لكن عمر الإنسان قصير: طفولة ولعب، حب وعمل، مرض ثم موت.

اشتعلت حرب، سيتخيرون لها فى وقت ما صفة "كبرى" أو "صغرى"، حتى يسهل تمييزها بسرعة من الحروب السابقة، والأخرى اللاحقة. أما الذين عاشوا ذلك العام فقد عدوها "حربا" فحسب.

وقعت الحرب، وقرب أكوام الحجارة، التى كانت مسماة فيما مضى: مدينة ايبرو البلجيكية، انبسطت قطعة أرض صغيرة المساحة، جلس عليها، وأكل، ومات، إناس غرباء وافدون من بعيد، أطلقوا عليهم اسم: "كتيبة خط الطول ١١٨ التابعة للجيش الفرنسى". وكانت تلك الكتيبة مؤلفة من الفلاحين وصناع النبيذ والرعاة فى قرية "بروفانس" بجنوب فرنسا. وطوال ستة أشهر كاملة، أكل أولئك الناس (ذوو الوجوه السمر والشعور المجعدة) فى الحفر الطينية، ناموا فيها، أطلقوا النيران، ماتوا وأياديهم تنتفض إلى أعلى.

وهناك فى هيئة الأركان، رسموا فوق الخارطة، عند مواقع "المعبر الأسود"، علامة تحدد أن كتيبة خط الطول ١١٨ تحمى المواقع هناك.

وعلى بعد خمسمائة خطوة جلس إناس آخرون، تحدثوا بلغات

مختلفة، وأطلقوا هم أيضاً النيران، ويبدو أضخم وأشد فظاظة وأميل إلى البياض زرق العيون، وكان السمر ذوو الشعور المجعدة قلة بينهم. هؤلاء كانوا مزارعين من "بوميران" بألمانيا، أطلقت عليهم هيئة الأركان اسم: "كتيبة الاحتياط ٨٧ التابعة للجيش البروسي".

كانت الكتيبتان عدوتين، تفصل بينهما قطعة أرض، قال عنها صناع النبيذ والمزارعون إنها "بلا صاحب"، قطعة أرض لم تكن تابعة للمملكة البلجيكية، ولا للجمهورية الفرنسية، ولا للامبراطورية الألمانية. قطعة أرض أحرقتها القنابل، وأكلتها بالطول وبالعرض الخنادق المهجورة الممتلئة حتى حافتها بعظام البشر والمعادن الصدئة. هكذا، كانت تلك الأرض هالكة، و"بلا صاحب"، لم تسلم فيها عشبة واحدة، فاحت كلها (فى منتصف يوليه) بعطن الدم، والبراز. ومع ذلك، فإن البشر أبداً لم يتقاتلوا للاستيلاء على أى بستان مبارك، نضير الثمار مورق النبات، كما تقاتلوا للاستيلاء على قطعة الأرض الخاوية تلك، والمشتهاة. ففى كل يوم، كان يزحف إنسان ما، من الأراضى الفرنسية أو الألمانية، إلى المكان الذى يقال إنه "بلا صاحب"، يزحف وهو يمزج الطين بخيوط من الدماء.

قال البعض إن فرنسا تخوض الحرب من أجل الحرية، وقال البعضُ الآخر إنها تسعى لنهب الحديد والفحم. أما "بيير ديبوا"، جندى كتيبة خط الطول ١١٨، فقد حارب لا لشىء، إلا لأن الحرب قد اندلعت. قبل ذلك، اشتغل "بيير ديبوا" بزراعة العنب، وحين كان المطر يسح طوال أيام متتالية، أو تهاجم حشرة

"فيلوكشر" الكروم، كان "بيير ديبوا" يقطب وجهه، ويسوط كلبه حتى لا ينوش العنب. وفي السنة الندية، كان يبيع الأعناب بثمن مربح، ويرتدى صدارته المنشاة، ويمضى إلى أقرب بلدة. وهناك يلهو كيفما يمكنه اللهو في حانة "ملتقى الأمراء": يخبط الجرسونة على ظهرها العريض ويلقى في ثقب مكنة الموسيقى قطعتى "سو"، ثم يستمع إلى الألحان المنتخبة فاغراً فاه. ولم يمرض "بيير" إلا مرة واحدة، حين ظهر له دمل في أذنه، وكان موجعاً للغاية. وفي صغره، كان مغرماً بامتطاء ظهر الماعز، وسرقة التين المجفف أينما خبأته أمه. وكانت له زوجة هي "چانا"، يضغط بعشق أغلب الوقت نهديها المتماسكين كعنقودى عنب.

هكذا، مضت حياة "بيير ديبوا"، إلى أن خاضت فرنسا الحرب، دفاعاً عن الحرية، أو لنهب الفحم، فصار "بيير ديبوا" جندياً في كتيبة خط الطول ١١٨ التابعة للجيش الفرنسي.

في مواجهة "بيير ديبوا"، وعلى بعد خمسمائة خطوة منه، جلس "بيوتر ديباو". ولم تكن حياة "بيوتر ديباو" تشبه في شيء حياة "بيير ديبوا"، مثلما لا تشبه البطاطس الأعناب، ومثلما لا يشبه الشمال الجنوب. ولكنها كانت في نفس الوقت تشابهها من دون حد، مثلما تشبه كل ثمار الأرض بعضها البعض، وكل البلدان، وكل الحيوات بعضها البعض.

لم يذق "بيوتر" العنب طيلة عمره، كان يرمقه فقط وهو معروض خلف زجاج المحلات. ولم يكن مغرماً بالموسيقى، لكنه كان يشارك الآخرين لعبة السبعة أوتاد في أيام الأعياد، وكان

يتجهم حينما تحمو الشمس وينعدم المطر، لأن العشب يصفر فى ذلك الوقت، وتدر الأبقار لبناً فاسداً. لم تمرض أذناه أبداً، فقط توعك ذات يوم، فرقد أسبوعاً طريح الفراش وهو يعاني من سخونة شديدة. وكان، فى صباه، يلعب مع كلبه الهرم "تاكسا"، ويتصيد بقبعته البقع الشمسية داخل الغرف. وكانت زوجته "يوهانا" بيضاء مثل اللبن، لينة كالبطاطس المسلوقة، وكان مفتوناً بذلك.

عاش "بيوتر" على هذا النحو، إلى أن قال البعض إن ألمانيا بدأت تقاتل فى سبيل الحرية، وقال البعض الآخر إنها تريد الاستيلاء على الحديد والفحم، فصار "بيوتر" جندياً فى كتيبة الاحتياط ٨٧.

ولم تكن هناك حرية فى قطعة الأرض التى "بلا صاحب"، ولم يكن هناك فحم، لم يكن هناك سوى عظام البشر، والأسلاك الصدئة. ولكن الناس أرادوا أن يظفروا بقطعة الأرض تلك، مهما كلفهم ذلك.

وقد أمعنت هيئة الأركان التفكير فى ذلك الهدف، وأدرجته فى المستندات والوثائق، وقام أحد الضباط، فى ٢٤ أبريل ١٩١٦، باستدعاء الجندى "بيير ديبوا" إلى مكتبه وهناك أصدر إليه أمراً بالزحف فى الثانية بعد منتصف الليل، عبر الخندق المهجور المسمى "ممر العواء" حتى مواقع القوات الألمانية، لكى يستكشف بدقة أماكن تمركز القوات المعادية.

لم يتجاوز "بيير ديبوا" الثامنة والعشرين من عمره، وهذا بالطبع عمر قصير للغاية إذا قسناه بنور النجمة الساكن الذى

يسرى بضع مئات من السنوات.

أنصت "بيير" إلى أمر الضابط، لكن عقله كان منشغلاً بالتفكير في خاطر آخر: "حشرة "فيلوكشر" تبيد الأعناب، والمرض يفنى الإنسان، والآن.. الحرب. وإذن، لابد من حساب عمر الإنسان بالساعات، لا بالسنوات. وهكذا، مازالت أمامه ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة حتى ميعاد تنفيذ الأمر".

وأسعفه الوقت فحاك زراً كان قد سقط، وكتب لزوجته "چانا" يوصيها برش الكيماويات على الكروم التى لم تنضج، وارتشف بصوت مرتفع قدحاً من القهوة المرة السوداء.

فى الثانية بعد منتصف الليل، شرع "بيير" يزحف على الطين الأملس لكى يستولى على الأرض التى "بلا صاحب". واستغرق "بيير" مدة طويلة وهو يمر فى الخندق المسمى "ممر العواء"، مرتطماً بعظام البشر والأسلاك الشائكة، حتى بلغ نهاية الممر. هناك، بانت له فى الجهة اليمنى، واليسرى، خنادق أخرى، مهجورة ويتيمة مثل بيوت منبوذة.

وتروى "بيير" مفكراً "فى أى الاتجاهين" يمضى؟ ولكن.. ألا يقود كل من الاتجاهين إلى الموت؟ وقرر أن يلتقط أنفاسه. وهكذا، أشعل غليونه، غليون جنود الجيش، المتواضع، المتسخ من الطين.

كان الجو هادئاً تماماً. عادة يطلق الجنود بالنهار النيران مدوية، أما فى الليل فيقتلون بعضهم البعض من غير ضوضاء، حين ترسل القيادة المستكشفين من أمثال "بيير" فى مهمة ما، أو تنصب الكمائن المموهة.

ابتلع "بيير" دخان غليونه، وتطلع إلى السماء التى رصعتها النجوم بكثافة. لم يزن "بيير"، لا ولم يخمن، ولم يقارن هذا الكون الواسع بقريته الصغيرة "بروفانس"، لكنه فقط قال لنفسه: "لو يكون الآن ليل مثل هذا هناك فى الجنوب، فيفيد العنب، ويبهج قلب "چانا" فهى تعشق الليالى الدافئة.

كان يدخن راقداً، منتشياً بكل الدفء السارى فى جسمه، وبأنه مازال حياً فوق هذه الأرض الماحلة التى "بلا صاحب"، يدخن ويتنفس، بل وفى وسعه أن يهز يده أو يحرك ساقه.

ولم يكد "بيير" يشعل غليونه من جديد، حتى لاح قبالته وجه إنسان ما من خلف الزاوية هناك. شخص يزحف نحوه. شخص كل ما فيه غريب: وجهه وخوذته وأزرار معطفه. ذلك كان "بيوتر دياو"، مجرد عدو لـ "بيير"، مثلما أن الحرب مجرد حرب.

ولم يكن "بيير" يدرى أن ضابطاً ألمانياً، قام فى نفس المساء، باستدعاء "بيوتر"، الذى رفأ هو الآخر معطفه، وكتب لـ "يوهانا" خطاباً يذكرها فيه بالاهتمام بالبقار العشروات، ثم احتسى الشوربة وهو يتمطق. لم يكن "بيير" يعرف بكل ذلك، وسواء أعرف أم لا، وسواء أفهم أم لم يفهم، فقد اعتبر "بيير" أن "بيوتر" عدوه، هذا لأن الحرب قد نشبت هذه السنة لا أكثر، لذا قوّس جسمه وتهيأ للوثوب والاشتباك حين أبصره يزحف فى اتجاهه.

أيضاً، مد "بيوتر" يديه الاثنتين، وجمع ساقيه، وقدر أكبر قفزة يمكنه القيام بها، عندما شاهد عدوه قريباً منه إلى درجة أنه سمع دقات القلب الآخر.. الغريب.

رقدا، كل فى مواجهة الآخر.

وتريث كل منهمـا، لم يشـأ لا هذا، ولا ذاك أن يكون البـادئ بالقتال. وكانت يدا كل منهما على مرمى بصر الآخر. لم يتطلع أحد منهمـا إلى وجه الآخر "عدوه" لكن كلا منهمـا حملق إلى اليدين العدوتين.

ظل غليون "بيير" مشتعلاً.

رقد العدوان قريبين من بعضهما البعض، زاهدين في القتل، مدركين، على الرغم من ذلك، أن الاقتتال حتمي. استلقيا بهدوء، وتنفس كل منهمـا في وجه الآخر بصوت مسموع، وتشمم كل منهما كوحشين رائحة وبرة أخيه: الغريبة، الأليفة والحميمة، رائحة المعطف المبلل والعرق الإنساني، الطين والشوربة. قدما من أراض بعيدة إلى أراض غريبة، "بلا صاحب" وقد أدركا أنه "لابد من قتل العدو". لم يحاولا أن يتكلما معاً، فما أكثر البلدان الغريبة، وما أكثر اللغات الغريبة، فقط تمددا متجاورين في سكون، وقد تصاعد بينهما دخان الغليون.

وقدر "بيوتر" أن أية حركة يقوم بها بيديه للتوصل إلى غليونه، تنطوي على خطورة، لذلك اكتفى باستنشاق الدخان المتصاعد بنهم. حينذاك مد "بيير" رقبته ليدنو من رأس "بيوتر"، فتناول "بيوتر" بأسنانه الغليون من فم "بيير"، وعلى الرغم من ذلك فإن الأعين الأربع، لم تفلت من مجال رؤيتها، الأيادي الأربع الغريبة.

بعد أن سحب "بيوتر" عدة أنفاس من الغليون، أعاده إلى "بيير"، فشد منه نفساً ثم قدمه مرة ثانية إلى عدوه دون طلب منه. تبادلا الغليون عدة مرات، ودخنّا باستمتاع. العدوان اللذان رقدا فوق قطعة أرض "بلا صاحب" ويجب الاستيلاء عليها مهما

تكلف ذلك. وكانا يبتلعان الدخان على مهل، وبحذر.. ببطء شديد للغاية. وبينما يسرى النور الهادئ ألوف السنين، كان هذا الغليون بالنسبة لواحد منهما آخر غليون يدخنه، وقد أدرك الاثنان ذلك. ووقعت الكارثة حين كفت النار عن التواصل فى الغليون فانطفأ، لأن واحداً منهما استغرق فى خاطر من خواطره فلم يطل بأنفاسه فى اللحظة المناسبة عمر الغليون القصير. أهو "بيير" وهو يتذكر "چانا" السمراء؟ أم أنه كان "بيوتر" وهو يودع فى خياله "يوهانا" البيضاء؟ واحد منهما على أية حال. وأدركا على الفور استحالة المخاطرة بإخراج القداحة، فأقل حركة باليدين تعنى التطاحن حتى الموت. وعلى الرغم من ذلك، قرر أحدهما أن يجازف.. وكان هو البادئ. أهو "بيير" الذى كان يدافع عن الجمهورية الفرنسية محتفظاً بقداحة ذات فتيل فى جيبه الخلفى؟ أم "بيوتر" الذى احتفظ بعلبة ثقاب وهو يدافع عن الامبراطورية الألمانية؟ واحد منهما على أية حال...

وأخذ كل منهما بخناق الآخر، وهوى الغليون غارقاً فى الوحل. قام كل منهما بخنق وضرب الآخر، فى صمت، وهما يتمرغان على الأرض. وأخيراً، أصابهما الهدوء، ورقدا فى وداعة متجاورين، لكن من دون الغليون. رقدا ميتين على أرض ماحلة "بلا صاحب".

وسرعان ما تلاشت الأضواء الهادئة التى كانت النجوم ترسلها إلى الأرض، وشع نور الفجر، وكما يحدث كل يوم، ما أن شاهد الناس - الذين يقتتلون من غير ضوضاء ليلاً - أشعة الشمس، حتى أخذوا يقتتلون بصوت عال، مطلقين نيران المدافع

والبنادق.

ووصلت إلى هيئتى الأركان مذكرتان، تحويان اسمى جنديين مفقودين. وكان الاسمان متشابهين إلى أقصى درجة، ومختلفين إلى أقصى درجة. وتسلل، بليل نفس اليوم، إلى الأرض التى "بلا صاحب"، إناس آخرون، ليقوموا بما لم يستطع "بيير"، و"بيوتر" القيام به، تسللوا لا لشىء إلا لأن الحرب نشبت فى ذلك العام.

بكت "چانا" السمراء "بيير" وهى ترش العنب الذى لم ينضج فى قرية "بروفانس"، بكت طويلاً، وفى هذا الوقت، أدخلت إلى بيتها زوجاً آخر هو "بوليا"، هذا لأن شخصاً ما لابد أن يشذب الكروم، وأن يضغط نهديها المتماسكين كعنقودى عنب.

وبعيداً، فى قرية "بوميران"، بعيداً جداً عن "چانا"، ولكن أقرب بكثير مما بين نجمة وأخرى، هناك بكت "يوهانا" البيضاء وهى تضع الطعام أمام البقار العشروات، ولأن البقر يحتاج لرعاية دائمة، ولأن جسمها الأبيض كالحليب لم يكن ليستطيع الحياة بلا حنان، ظهر زوج جديد فى المزرعة هو "باول".

فى أبريل ١٩١٧، كفت الأرض التى "بلا صاحب"، باعثة العطن من الدم والبراز، عن أن تكون "بلا صاحب". حدث ذلك فى يوم دافىء، مشمس، حين مات فوقها بشر بلا عدد، من مختلف البلدان، وحينذاك صارت التربة الصفراء المشبعة بالدم بالقانون ملكية خاصة لـ "صاحب" ما. ومشى الناس للمرة الأولى على أرض الخندق المسمى "ممر العواء"، مشوا هادئين، دون أن يحنوا رؤوسهم. وفى نهاية الممر، عند المنحنى، حيث تتفرع خنادق أخرى يميناً ويساراً، شاهدوا هيكلين متعانقين، وغليون

صغير بالقرب منهما على الأرض.

ها هو أمام عينى، ذلك الغليون المتواضع وقد تلوث بالطين والدم، الغليون الذى صار زمن الحرب "غليون السلام"، مازالت فيه بقية من رماد رصاصى: أثر من حياتين اشتعلتا أسرع مما تشتعل نتفة من تبغ ■

❑❑❑

❖ لقاء عابر ❖

■ قسطنطين باوستوفسكى

في أواخر الخريف كنت أمضي بسيارتي في منطقة "فيليكا - لوكسكي" و"بسكوفسكي". تفرجت على عديد من القرى الصغيرة الناهضة وسط الغابات، إلا أن قرية علقت بذاكرتي على نحو خاص، إذ كان لها اسم احتفالي هو: "الأجراس".

كانت تلك القرية تقع فوق رابية عالية، وتطل على بحيرة ساجية تبدو عميقة للغاية. راحت السماء تنطفيء بينما يقترب المساء، وأخذت نوافذ البيوت تعكس الغروب الأصفر الفاتر.

بلغت - مساء نفس اليوم - بلدة رحيبة هادئة هي "ابتشكا"، في منتصفها كان يهدر فواراً "النهر الكبير". نزلت في فندق "ابتشكا"، وفيه ساقني الحظ إلى لقاء عابر وشيق. كان واضحاً أن عملية ترميم للفندق قد انتهت لتوها، ذلك أن كل شيء، حتى المصابيح الكهربائية المدلاة من الأسقف، كان ملطخاً ببقع الجير الأبيض.

عند مدخل الفندق - بعد ساعة من وصولي - التقيت برجل أشيب الرأس، قصير القامة يرتدي معطفاً رثاً، اتضح أنه كان على علم بوصولي، أوقفني وسألني:

- متى كانت آخر مرة دخلت فيها قاعة "الكونسرفتوار" الكبيرة؟

أوقعني سؤاله في حيرة، بالرغم من ذلك أجبته أني منذ شهر حضرت في تلك القاعة حفلة عازفة البيان سفيتا سلافا ريخترا.

قال العجوز:

- أصل المسألة أنى حاصل على شهادتى من "كونسرفتوار" موسكو - قسم التأليف - لذلك أرجوك حين تعود إلى موسكو أن تنحنى نيابة عنى لتلك القاعة الضخمة، ولآلة الأورغن الشهيرة. أنى أرجوك صادقاً أن تفعل هذا.

- هل انقضى زمن طويل منذ أن كنت فى موسكو؟

- سبع سنوات.

رد المؤلف العجوز وسألنى على الفور:

- هل اهتممت بأن تعرف كم "بيانو" وكم "رايال" فى هذه المنطقة "فيليكا - لوكسكى" أو "الريف" كما يطلقون عليها؟ أتدرى كم عددها فى نوادى "الكلخوزات" والمدن الصغيرة مثل "ابتشكا" المباركة هذه؟

مرة أخرى ارتبكت وأجبته:

- أنى لم أهتم بذلك.

- هذا هو! شفت.

وأكمل المؤلف بمرارة:

- إن عددها قليل جداً.. إلى درجة فظيعة.

فى هذه اللحظة ولج المدخل رجل يرتدى معطفاً قصيراً مبطناً بالقطن تفوح منه رائحة بنزين نفاذة. ملت إلى الظن بأنه سائق. قال للمؤلف:

- يا والدنا.. فلنمض إلى المطعم نتغذى.. اليوم معى فلوس، فدعنا نذهب ونملأ معدتنا إلى آخرها.

- لا يا عزيزى، أشكرك، لا يمكننى بأية حال، فبعد ساعتين

عندى حفلة فى مدرسة، سأعزف "تشايكوفسكى" و "شوستاكوفيتش".

التفت المؤلف نحوى:

- نعم.. سبع سنوات لم أر موسكو! ... قالها بتعجب وأمسك بى من كم معطفى - لكنى جبت الشمال كله فى هذه السنوات، والآن أطوف بأقليم "فيليكا - لوكسكى" أقيم الحفلات فى المدن والقرى الصغيرة. كان بوسعى أن أعيش فى موسكو، بل وربما حالفنى النجاح مثل الكثيرين من زملائى. لكنى إنسان وحيد والقليل يكفينى على حد قول الشاعر "وكسرة من خبزنا وقدح الحليب، وللسما من السحاب مئزر قشيب". هكذا كما ترى فضلت أن أتجول فى المدن والأطراف البعيدة أحيى الحفلات، مقابل بضعة قروش، لكن ليس هذا لب الموضوع.. أنت لا تتصور كيف يتوق الناس إلى سماع الموسيقى وخاصة الشباب، ثم أى امتنان يحسونه نحوك بعد ذلك، امتنان يدفعك إلى الاستمرار ولو كلفك هذا أن تدور فى معطف رث.

عقب السائق قائلاً:

- الفلوس لا تفى بأجرة الانتقال فما بالك بمعطف؟

رد المؤلف باعتزاز:

- لم يحدث أن أحداً قام بتوصيلى من مكان إلى آخر مقابل فلوس، ثم أنى أعمل كعازف بيانو.. بالرغم من أنى مؤلف، وهذا عدل.

استوضحته:

- كيف هذا؟

أجابني:

- لأن جوهر الموضوع هو أن تحدد لنفسك بشكل سليم، ما هو أرقى وأروع ما يمكنك أن تمنحه للناس.. هل تفهم قصدى؟ فرق ضخم بين الأشياء الموسيقية التى أكتبها وأعمال "موتسارت" أو "تشايكوفسكى"، "موسورسكى" أو "شوستاكوفيتش"، لذلك أفضل عزف هذه الأعمال على تأليف مقطوعاتى، وبذلك أزيد من درجة نفعى للناس.

صاح السائق:

- تمام! أنا مثلاً سواق درجة ثالثة، فإذا قدت سيارة من نوع "زيس ١١٠" سأقطع قلبها!

قال المؤلف:

- زاخار إيفانوفيتش.. انتظر.. قل لى.. ما قيمتى أنا كمؤلف؟ قل لى.. أنا لست سوى نغمة بسيطة، نغمة يعوزها اللهب واندفاع المشاعر الجبارة إلى القمم، ثم ما هو المطلوب قبل كل شىء فى زماننا؟ المطلوب تربية المشاعر الإنسانية الجليلة أولاً وقبل كل شىء، لذلك صرت عازف بيانو أجسد الموسيقى الخالدة. يقول أحد الشعراء: "ورق الأشجار حين يجف ثم يهوى من سماء، فهو تبر ساطع أبداً فى الغناء". إنه شعاع خالد، ذلك الشعاع الذهبى الذى يلقى به الفن علينا، إنه يرفع من قدرنا دائماً. هذه هى المسألة يا عزيزى!

صمت المؤلف كأنما يرهف السمع إلى صوت ناء، ثم قال:

- ربما كان كلامى مبهماً وغير واضح.. لكنها العادة السيئة.. أحياناً تحتم علىَّ الظروف ألا أكون فقط عازف بيانو، ولكن

ضابط بيانو وأسطى لمختلف الأبوات الموسيقية.. منذ أيام حدث ما يلي: في بلدة قريبة من هنا اسمها "الأجراس".. نعم.. نعم.. بلدة رائعة تشرف على بحيرة.. المهم.. اتضح أن عندهم "رايال" ببيت إحدى معلمات الريف، انتقل إليها عن امرأة عجوز، أما كيف تصادف وجوده عند العجوز، فذلك ما لم يعرفه أحد، والعجيب أنه كان بحالة جيدة، إلا أن ثمانية أصابع منه لم تكن تعزف، وكان عليَّ أن أصلحه بنفسي.. الحق أن إصلاحه استغرق وقتاً طويلاً، استطعت في نهايته أن أجعل صوته سماوياً.. وفيما بعد، قاموا بنقله إلى نادي الكلخوز.. هكذا.. بهذه الطريقة نعمل.

قال السائق للمؤلف:

- لكن يا ليونيد بتروفتش، لو ناقشنا الموضوع من الناحية العملية، سنجد أنك مثل طفل صغير.. كيف تعيش هكذا دون راحة وأنت رجل مسن؟

وعلق المؤلف:

- من الناحية العملية؟ كلا.. لا تحسب المسألة من هذه الناحية.

أردف المؤلف كلماته بإشارة من عينيه نحو المرأة المنوبة بالطابق في الفندق، وكانت ذات عينين جاحظتين قصيرتين، جلست ملوية الشفتين خلف حاجز خشبي تجري بعض الحسابات مستخدمة الآلة الحاسبة.

اتبع المؤلف إشارة عينيه بقوله:

- تكاثر أمثال هذه المرأة ممن يحسبون الموضوع من نواحيه

العملية، تكاثروا مثل الحشرات فى الكرنب. وأنت أليس من الأفضل لو مضيت معى إلى الحفلة؟

أجاب السائق:

- سآتى دون شك. أنت حتى الآن يا ليونيد بتروفتش لم تقدم حفلة واحدة فى "ابتشكا" من دونى.

ودعنى المؤلف وخرج.

سألت المرأة المنوبة:

- من هو هذا الشخص؟

أجابتنى بخشونة:

- ماذا بك؟ ألا ترى؟ - هزت كتفيها وأضافت - رجل يتسول بالموسيقى، وكل ما يتقنه هو مخالفة قواعد النظام الداخلى، فهو إما يغنى، وإما يصطحب معه صبياً من الحرفيين إلى الغرفة، ويبدأ فى تعليمه العزف على الجيتار.. هذا على حين أن نزلاء الفندق عادة من الناس المحترمين الذين يسافرون لقضاء أعمالهم، أما هو فلابد من طرده بسبب أفعاله تلك.

عند حلول الليل هبت على "ابتشكا" ريح رمادية معتمة، أخذت تسوق السحب وتجمعها، واندفع المطر فى هبات طائرة راشقاً بقطراته القوية زجاج النوافذ، غاسلاً عنها الجير الأبيض.

تمددت العتمة، كثيفة، بحيث لم تستطع أن تزحزحها تلك المصابيح الساطعة فى الشوارع المهجورة إلى خارج حدود القرية، هكذا ظلت العتمة راقدة فوق "ابتشكا" حتى بزوغ الفجر البارد المشبع بالندى.

استيقظت وسط الليل. كانت الريح تعوى وتهز الأشجار.

العارية خلف الشباك فى الشارع. تأرجحت هوجاء على الجدران فوق رأسى ظلال غصن باهتة. استلقيت على السرير وتذكرت المؤلف العجوز. لابد أنه يحس الوحدة فى هذه القرية الغريبة وهذه الليالى اللعينة.

سمعت وقع خطوات خلف باب غرفتى، ثم حشرجة الصنبور النحاسى، تحمل ـ من المغسل إلى الردهة ـ صوت طرطشة الماء، وصوت إنسان يغتسل وهو يدندن بنصف صوته: "الموج يصرخ فى النهير الكسيف.. إبكى وولولى يا عواصف الخريف". وعلى الفور أعقب ذلك صرير السلالم شديداً ثم دبيب أقدام شخص فى الردهة، وتناهى إلى سمعى صوت المرأة المنوبة بالطابق نشازاً ومزعجاً: "كف عن هذه الفضائح! أهذا ما توصلت إليه؟ الغناء فى أواخر الليالى؟".

وواتتها الإجابة فى وشوشة ذات صفير تحمل تهديداً مصطنع الحزم: "ديدمونة! هل أديت صلاة الليل أم لا؟". وغمغمت المرأة من دهشتها بشىء ما عن قواعد النظام الداخلى، ثم انصرفت مهرولة. أما المؤلف ـ وكنت قد تعرفت إلى صوته ـ فقد أطلق فى أعقابها ضحكة صبيانية للغاية. وأغرقت بدورى فى الضحك وأنا فى غرفتى. وأدركت أنه ليس بوسع أى شخص من الأجلاف، ولا أية ليالى دون مأوى، أن تعكر صفو القلب الطاهر فى ذلك الرجل المرح.

فى الصباح سافرت من "ابتشكا" قاصداً إلى "بسكوف". وفى طريقى، عرجت على جبال بوشكين حيث قبر الشاعر.

كان المكان ـ كالعادة فى أواخر الخريف ـ خالياً يعمه الهدوء.

ومن عند الرابية حيث القبر، تراءى لى الأفق الشاحب وقد تعلقت به نهايات الخيوط الذهبية. لم أجد أحداً قرب التمثال الأبيض البسيط الذى تحمل قاعدته اسم "الكسندر سيرجيفيتش بوشكين". فقط بعد مرور ساعة غشى المكان عدة رجال ونساء من الغجر، وكنت أرى مخيمهم منصوباً قرب الجبال. أخذوا يفترشون الأرض حول القبر، ثم شرعوا بأصوات منخفضة يتبادلون الرأى حول شىء ما، وبصوت لا يكاد يسمع انخرطوا فى أغنية غجرية مديدة الأنغام وحزينة. امرأة واحدة فقط لم تشارك فى الغناء. كانت شابة، جلست على الأرض وقد اسدلت على كتفيها شالاً جميلاً من الحرير، وأخذت تعبث بأوراق الشجر الملقاة، وسرعان ما انتفض رأسها إلى أعلى وسحبت من بين شعرها الفاحم، زهرة حمراء من الورق المقوى، ورمتها بين قدمى بوشكين، وافتر ثغرها عن بسمة كشفت أسنانها المتلألئة.

اتصلت الأغنية تنثال بجرس هادىء ومكتوم، وومضت فى رأسى صورة المؤلف العجوز فى "ابتشكا"، وأنارت فجأة فى وعيى، صلة ما، مبهمة، بين هذه الأنغام المديدة ودقات البيانو فى أبعد الأماكن، وفى أقصى زوايا الوطن، فى القرى مثل قرية "الاجراس"، و "جارياتشى ستان"، و "كامنى جريفى".

صار الغجر ينهضون ويهبطون فى الريح على الدرج الحجرى النازل من عند رابية القبر إلى تحت، وكانت الغجرية الشابة آخر من ذهب. ظلت واقفة أمام القبر ثم التفتت نحوى قائلة بصوت أبح:

- كنت أود يا عزيزى لو غنيت لك "دثرينى بالشال الأسود"

لكنى لا استطيع.. حنجرتى تعذبنى بشدة.

قالتها واستدارت بنعومة ومنصرفة فى أعقاب الغجر.

بقيت مكانى.

هكذا سرعان ما امحى يومى كبسمة عابرة داغماً كل ألوان الخريف فى لون واحد رمادى جهم دبت فيه هواجس الثلج واعتام الأشتية وأشجار البتولا بلونها الفضى وهو يسود، وضباب مديد.

لسبب ما خطرت ببالى كلمات المؤلف العجوز حين حدثنى عن الشعاع الذهبى الذى يلقيه الفن علينا ■

□□□

❖ مساهمة مشكورة ❖

■ ايفان بونين

فى موسكو، لنقل فى شارع "مالتشانوفسكى" تعيش فنانة "مسارح الامبراطورية" فيما مضى، تعيش وحيدة وقد تجاوزت سن الشباب، معروقة، عظم وجنتيها عريض، وتقوم بتدريس فن الغناء للراغبين. وإليكم ما يحدث معها فى شهر ديسمبر من كل عام:

فى أحد أيام الآحاد، ولنفترض أنه صباح جليدى مشمس، يرن جرس شقتها فى الصالة. تصرخ الفنانة من غرفة نومها بفزع فى الطاهية:

- آنيوشكا.. الجرس يدق.

تهرول الطاهية لتفتح الباب، ثم تتراجع إلى الخلف قليلاً: إلى هذه الدرجة كان الضيوف متأنقين وباهرين، أنستان ارتدت كل منهما معطفاً من الفراء وقفازاً أبيض، يرافقهما طالب غندور تجمد من البرد فى معطفه الخفيف وحذائه الرقيق.

يدخل الزوار وينتظرون طويلاً فى غرفة الضيوف الباردة التى أضاءها نور الشمس الكهرمانى اللون عبر النافذة المزخرفة بالجليد. بعد ذلك يسمعون صوت الخطوات الحثيثة لربة البيت، فيقفون باستعجال تأهباً للقائها. وتدخل الفنانة، منفعلة للغاية، وقد غطت وجهها بالبودرة الكثيفة، وعطرت يديها الضخمتين العظميتين، تدخل بسرعة وهى تحاول التحكم فى تلاحق نبضات قلبها، فهى تعرف الموضوع سلفاً، وتقول ببسمة ساحرة وبتبسط

كبار القوم:

- أستحلفكم بحق الله أن تعذروني أيها السادة، يبدو أني تركتكم تنتظرون؟

وانحنى الطالب مقبلاً يدها، وهو يقاطعها باحترام بالغ:

- بل نحن الذين نرجو أن تعذرينا عن الازعاج. حضرنا إليك لطلب هام وملح، موفدين من لجنة تنظيم الحفل الأدبى الموسيقى السنوى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسة رقم (٥) الموسكوفية الثانوية. لقد منحتنا اللجنة شرف أن نرجوك أن تساهمى مشكورة فى هذا الحفل الذى سيقام ثالث أيام أعياد الميلاد.

وتفتتح حديثها بصورة رائعة:

- أيها السادة، لو كان من المستطاع أن تعفونى.. المسألة أن..

لكن الآنستين تنقضان عليها بمودة وحرارة بالغتين، بتملق، بحيث أنها لا تتمكن من استكمال محاولة الامتناع والاعتذار الضعيفة هذه.

بعد ذلك، تمر ثلاثة أسابيع بأكملها.

وثلاثة أسابيع بأكملها تعمل مدينة موسكو وتتاجر وتمرح، إلا أنها فى زحمة مشاغلها المتعددة، ومصالحها، ومباهجها، تعيش فى غورها على شيء واحد هو ارتقاب حفل يوم ٢٧ ديسمبر الشهير.

كثرة هائلة من الإعلانات، بجميع الألوان والمقاسات، زينت جدران كل الشوارع والتقاطعات: "فى الحضيض"، "الطائر الأزرق"، "الأخوات الثلاث"، شاليابين فى "الحورية"، سبينوف فى

"ابنة الثلج"، شوركيرين فى "زيمين" أمسية مع "ايجور سيفيريانين"... ولكن لا يخز نظر الناس الآن سوى ذلك الإعلان الصغير، المطبوع عليه بأحرف ضخمة اسم ولقب الفنانة التى تساهم مشكورة فى الحفل الأدبى الموسيقى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسة رقم (٥) الموسكوفية الثانوية.

فى هذا الوقت، تقبع الفنانة فى بيتها، لا تغادره. تعمل من دون يأس كى لا تخيب آمال موسكو، تختار بدون نهاية ما سوف تغنيه، تجرب صوتها من الصباح حتى المساء، تحفظ أغنية ثم تبدلها بأخرى. وتمر الأيام بسرعة غير طبيعية فى هذه الفترة، سرعة تدفع الفنانة إلى الرعب: "لا يكاد المرء يلتفت برأسه حتى يحل هذا اليوم المفزع.. السابع والعشرون من ديسمبر". أوقفت دروس الغناء، لم تعد تستقبل أحداً، وأصبحت لا تخرج من البيت خوفاً من نزلة برد أو زكام.

"ماذا أقدم بالضبط؟". إن الجمهور لا يتصور صعوبة الإجابة على هذا السؤال حتى بالنسبة لأكثر الفنانين خبرة. فلابد لذلك من تألق الحاسة الفنية القوية، وقدرة لا تحد من الذوق والدربة والحذاقة. بعد طول الشكوك المعذبة، تكف الفنانة عن التردد، وتستقر برأيها على برنامجها الفنى القديم، الذى لا يتبدل، ومرة أخرى تتوالى الأغنيات الثلاث: "الأولى: فرنسية حزينة رقيقة، ساحرة كأغانى المهد، تكمن فيها على الرغم من ذلك، حرقة هائلة، قوة وألم روح الأنثى العاشقة المتعطشة للسعادة حتى الجنون، ولكنها تضحى بكل شىء وتحرم نفسها من هذه السعادة. الأغنية الثانية: مشحونة بالجرأة الروسية، محشوة

بالحلى الموسيقية المتلألئة. ثم تأتى الثالثة قمة الأغانى: "كنت أود لو قبلتك.. لكن أخشى أن يرانا القمر". وهذه الأخيرة يُمكن كالعادة أن تبرق بصورة خاصة، على أن تُؤدى أداءً نارياً، بدلال وشباب، وعند ارتفاع صوتى مبهجاً إلى أقصى نبراته أقطع الغناء حتى ترتج القاعة كلها بالتصفيق". إلى جانب ذلك تعد الفنانة اثنتى عشرة أغنية احتياطية لتلبية طلبات الجمهور إذا استزادها.

وتمر الأيام بسرعة، كلمح البصر، فيتضخم فى روحها إحساس بأن ساعة الإعدام تقترب، وبالرغم من ذلك فإنها تتدرب، وتتدرب. وها هو اليوم، الأخير، المميت يحل فى نهاية المطاف!

فى صباح ٢٧ ديسمبر تحتشد كل قواها متوترة إلى أقصى حد. مرة أخرى بروفة هذا الصباح، لكنها البروفة الأخيرة، الشاملة. تغنى أثناءها كما لو كانت تقف على منصة المسرح بالفعل: بملء صوتها، بكل قدرات التعبير الفنى، تغنى البرنامج كاملاً مع عازف مصاحب، وتستشعر أنه: "لم يضع جهدى هباء". ومع هذا فمن يدرى ما الذى ينتظرها هذا المساء؟ النصر؟ أم الموت؟ ويلتهب وجهها ويداها، وتمضى بعد البروفة إلى غرفة نومها وتخلع ملابسها وترقد فى السرير. وتحمل أنوشكا إليها هناك شيئاً غير مألوف أبداً: كافيار، فروج بارد، نبيذ "بورت فين"، هكذا يوم الحفلة تفطر كل الفنانات الكبيرات. بعد تناول الطعام تطلب من أنوشكا إسدال الستائر فى الغرفة والانصراف والمحافظة على الهدوء التام فى الشقة. ثم تغمض

عينيها فى الظلمة، مستلقية بدون أية حركة، وتحاول ألا تفكر فى أى شىء، وألا تنفعل لأى سبب، ساعة، وأخرى، والثالثة، وهكذا حتى السادسة مساء. وفى السادسة تنتفض من رقدتها جالسة فى السرير على جرس حاد فى الصالة. "إنه الحلاق"

ويدق قلبها، وتلتهب أذناها وعظمتا وجنتيها، وبيد باردة كالثلج تنقط لنفسها أربعين نقطة من سائل أثيرى، ثم تخطو لتجلس أمام المرآة فى ثوبها البيتى وشعرها المرسل مثل عذراء جاءوا لتزيينها ودفعها للموت.

يدخل الحلاق وقد أدفأ يديه سلفاً فوق موقد المطبخ. ويقول مشجعاً: ما أجمل الطقس فى هذا اليوم، صقيع هائل.. لكن ما أروعه!

إنه يعمل بتأدب وبطء، ويشعر أنه شريك فى الحدث المقبل، وهو يدرك قلقها الفنى، ويقاسمها ذلك القلق، إنه فنان بطبعه. وهو بأحاديثه البسيطة، غير المكترثة، بنكاته، وبشكل عام بكل خبرته فى هذه الأمور، وهى خبرة لا تضارعها إلا ثقته الأكيدة فى نجاح الفنانة القادم، يطمئنها شيئاً فشيئاً، وينعش قواها، وجرأتها. ينصرف الحلاق بعد أن ينتهى من عمله، ويتفحصه من كل الجوانب، متأكداً من أنه لا يمكنه إضافة أية تحسينات على تسريحة وتصفيفة الشعر الرائعة هذه.

وتدق ساعة الحائط ببطء فى غرفة الطعام، وتعلن السابعة، ويتجمد قلبها من جديد: "سيأتون ليصطحبوها فى الثامنة والنصف".

تدق الساعة الثامنة، وهى لم تتأهب بعد. مرة أخرى تتعاطى

نقطاً من دواء آخر، هذه المرة "جوفمانسكى". وترتدى أحسن ما عندها من الملابس التحتية، وتحمرّ وجنتيها، وتضع البودرة. فى الثامنة والنصف يرن الجرس الأخير الذى يصعقها كالبرق: "لقد وصلوا"!

وتهرول أنوشكا بصعوبة فى الصالة، وتبدو من شدة اضطرابها وكأنها شخص آخر، حتى أنها لا تتمكن من فتح الباب على الفور.

إنهم، هذه المرة، طالبان وصلا فى عربة خيل مستأجرة، قديمة وضخمة، مهيبة، شد إليها فرسان كبيران منهكان. طالبان غندوران، تجمدت أقدامهما من الصقيع. يمضيان إلى غرفة الضيوف، باردة ومملة كالعادة، تشتعل فيها مصابيح تفوح برائحة الكيروسين. يجلسان، وقد ارتديا نفس الزى المدرسى الموحد، رأسان يلمعان كالمرايا ويفوحان برائحة الـ "بريانتين" وعطر مثبت الشعر. على صدريهما عقدتان كبيرتان من الحرير الأبيض، بالضبط كوكلاء العرسان. يجلسان صامتين، يترقبان بأدب وثبات، يتطلعان إلى كل ناحية، إلى الأبواب المغلقة، إلى الزجاج المتجمد وقد انعكس عليه نور المصابيح شعلاً متلألئة حمراء وزرقاء، إلى البيانو، وإلى صور المغنيات الشهيرات والمطربين المعلقة على الجدران، يسمعان طنين "الترموايات" المكتوم وصليلها من خلف النوافذ، ينصتان إلى صوت الخطوات القلقة لأنوشكا، والفنانة خلف الأبواب.. تنقضى على هذا النحو ربع الساعة، نصف الساعة، أربعون دقيقة، إلى أن ينفتح أحد الأبواب فجأة وبشكل غير متوقع، فيقفزان من مقعديهما كأنما

بأمر عسكرى. وتمضى الفنانة نحوهما مسرعة قائلة ببسمة ساحرة لا مبالية:

- أستحلفكم بحق الله أن تعذرونى أيها السادة، يبدو أنى تركتكم تنتظرون؟ ماذا.. ترى هل أزف الوقت حقا؟ هيه.. حسنا فلنذهب إن شئتم، إنى جاهزة.

وبالرغم من الحمرة والبودرة، تشتعل البقع الأرجوانية - عبرهما - فى عظم وجنتيها، ويفوح فمها برائحة نقط زهر السوسن، ويداها برائحة الكريم، وفستانها الشفاف الرمادى الفاتح ينشر العطر. إنها تشبه الموت متوجهاً إلى حفلة! وقد ألقت بشيء ما من الدانتيلا السوداء، إسبانى، فوق شعرها الأشهب المجعد المنفوش من مختلف نواحيه فى تصفيفة معقدة ومرتفعة عالياً، ووضعت معطفاً من فرو ماعز أبيض مجعد على كتفيها العاريتين وقد برزت منهما عظمتا الترقوة كبيرتين.

أما الطالبان فيتدافعان من ورائها فى الصالة.

فى تلك اللحظة، يتناول الطالب الأنحف والأطول حذاء المطر، ويركع بسرعة واضعاً إياه على ركبته ويلبسه للفنانة فوق حذائها اللامع ذى الإبزيم الماسى، ويشم فى نفس الوقت رائحة فئران منبعثة من تحت ابطيها حين تنحنى لتساعده، وتشد بتواضع فى نفس اللحظة طرف ثوبها ليغطى أطراف القميص الداخلى الأبيض المشغول بالدانتيلا..

غنت عن سحابة صادفت رعداً، وعن ملاذ من نوع ما "ربنا هبنا الملاذ"، وتألقت على نحو خاص فى "كنت أود لو قبلتك.." وأثناء هذه الأغنية قهقه، بطريقة لاذعة رجل عجوز وغلاط، كان

جالساً بالصف الأول، وهز رأسه بصورة لا تحتمل إلا معنى واحداً هو: "لا شكراً.. لا تقبليني من فضلك". لكنه للحق لم يلق تجاوباً من أحد، وحققت الفنانة نجاحاً باهراً، واستعادها الجمهور بلا توقف، وأرغمها على التكرار، استعادها خاصة الشباب المرهف الشعور الذى وقف في الممرات بين الصفوف يزعق بشراسة ضارباً بمغارف كفوفه، مصفقاً بدوى هائل ■

□ □ □



■ ميخائيل زوشنكو

السرقة موجودة عندنا. لكنها تقل. البعض أصلح نفسه وكف عن السرقة. آخرون.. كيف أقول لكم؟ لا ترضيهم تشكيلة البضائع التي بالسوق. قسم آخر - وقد أصبح لا يرى كبار المليونيرات والملاك - ضبط نفسه، وصار يسرق الآن من الحكومة نفسها. لكنهم بدون شك، وهذا أمر طبيعي، لم يعودوا يسرقون بالطريقة التي كانوا يسرقون بها فيما مضى، فالمغفل وحده، الذي لا يفهم روح العصر، هو الذي يسرق في أيامنا هذه. الكثيرون أصبحوا يفهمون "الروح العصرية" بصورة ممتازة مستوعبين بالفعل أحدث الاتجاهات.

على سبيل المثال، وقعت - من مدة بسيطة - حادثة سرقة في جمعيتنا التعاونية، وفي تلك السرقة يمكننا أن نلمح على الأقل فكرة فلسفية.

وإليكم كيف جرى ذلك.

الجمعية التعاونية، يعني المحل، مفتوحة كمركز لتوزيع البضائع. وبداهة أن هذه البضائع كثيرة. بط للتصدير موضوع عند النافذة، سلمون - لماذا؟ لا أعرف. خنازير، لا تؤاخذني، مقسمة إلى قطع كبيرة. جبن. هذا بالنسبة للأكل. الحاجات الأخرى أيضاً موجودة بكثرة. جوارب حريمي، أمشاط، إلى آخره. كل هذا ملقى بوفرة ومعروض في "الفاترينة" بصورة مغرية.

وقطعاً وهذا شيء طبيعي، لفت ذلك نظر البعض.

خلاصة الكلام: شخص ما - من إياهم - تسلل في ساعة ليلية إلى المحل عبر المدخل الخلفي، وهناك تصرف براحته على الآخر.

المهم، في ذلك الوقت استغرق الحارس في نومه عند البوابة، فلم يلحظ شيئاً مريباً، وقال فيما بعد:

- صحيح أني رأيت بعض الأحلام في هذه الليلة، لكني لم أسمع من العالم الآخر شيئاً يدعو للريبة.

وبالمناسبة، لقد أصاب الحارس فزع حاد حينما اكتشفوا السرقة، وراح يهرول في المحل هنا وهناك متشبثاً بأطراف كل من يراه، متوسلاً إليه ألا يوقعه في ورطة، وما شابه هذا.

قال له المدير:

- ذنبك بسيط. بالطبع لن يربت أحد على رأسك امتناناً لك على نومك، لكن من المستبعد أن يلفقوا لك تهمة ما. فلا تخف إذن، ولا داعي للتخبط هنا بين الأقدام، ولا تثر أعصاب عمال المحل بدهشتك. الأفضل أن تنصرف وتكمل نومك في البيت.

لكن الحارس لم ينصرف. ظل واقفاً في حالة تشوش وهو مغتم بسبب الكميات الكبيرة المسروقة من الأشياء وأخيراً قال:

- أما هذه، فلا يمكنني - بصراحة - أن أفهمها، أنا نومي خفيف، وحتى حينما أنام فإني أمد ساقي بطول البوابة. غير معقول أنهم مروا عبرى بجوالين من السكر؟! هذه مسألة في منتهى الغرابة؟!

قال المدير:

- نمت نوماً ثقيلاً جداً يا ابن الكلب! الكميات التي سرقوها

شيء مرعب!

قال الحارس:

ـ مستحيل أن يأخذوا الكثير، وإلا كنت استيقظت.

قال المدير:

ـ طيب.. الآن سنضع كشف المسروقات وسنرى وجهك يا غراب البين، وسنرى حجم الخسارة التى جلبتها على الحكومة والتى لا يصدقها عقل..

وأخذوا يعدون كشف المسروقات فى وجود الميليتسيا(١)، وبدأوا، بعد الإحصاء والوزن وغير ذلك، يتصايحون بتعداد المسروقات.

ووقف الحارس المسكين لا يفعل شيئاً إلا ضرب كف بكف وقد أوشك على البكاء، إلى هذه الدرجة كما ترون يعانى مواطن آدمى أخذته الشفقة على الحكومة محتقراً نفسه لأن نومة أخذته.

يقول المدير:

ـ أكتب: "عشرة بود(٢) سكر قوالب. مائة وستون علبة سجائر. دستتان من الجوارب الحريمية. ثمانى قطع كبيرة من لحم الخنزير....

وبينما كان المدير يملى، كان الحارس عند سماعه لكل رقم يقفز من مكانه.

وفجأة صاحت عاملة خزانة الفلوس:

---

(١) الميليتسيا: جهاز الشرطة السوفيتى. المترجم.

(٢) بود: وحدة وزن تساوى ١٦،٣٨ كيلو جراماً. المترجم.

- قيد عندك، سرقوا من الخزانة كوبونات قيمتها مائة واثنان وثلاثون روبل، وثلاثة أقلام كوبيا، ومقصاً واحداً.

ووصل الأمر بالحارس - عند سماعه هذه الكلمات - إلى درجة أنه جلس القرفصاء وصار يخور. إلى هذا الحد اغتم الرجل بسبب السرقات الضخمة، بينما صاح المدير بالميليتسيا:

- أبعدوا هذا الحارس إنه يعطلنا بخواره فحسب.

وقال له رجل الميليتسيا:

- اسمع يا عم، انصرف إلى بيتك سينادون لك حينما يحتاجونك.

في هذه اللحظة زعق المحاسب من الغرفة الخلفية:

- كان عندي شال حرير معلقاً على الحائط، لكنه اختفى، أرجو أن تسجلوا أنني أطلب تعويضاً عن الخسارة التي حاقت بي.

وعلى غير توقع صاح الحارس:

- آه من هذا السافل! أنا لم آخذ هذا الشال من عنده، ولم آخذ كذلك قطع لحم الخنزير. هذه بالفعل مسخرة! أنا كل ما أخذته قطعتين.

وهنا ساد المحل صمت مطبق. واستطرد الحارس:

- كلب يلهفكم! نعم أنا الذي سرقت. أعترف. لكني بالمقارنة بكم إنسان نظيف، ولابد أن تعرفوا أن كتابة المحضر بهذه الصورة تغضبني.. ولن أسمح بتقييد أية مسروقات زائدة في المحضر.

قال رجل الميليتسيا:

- كيف ذلك؟ هل أفهم من هذا يا عم أنك أنت الذى تسللت إلى المحل؟

قال الحارس:

- نعم أنا الذى تسللت، لكن يدى لم تمتد إلى الكوبونات المالية ولا إلى المقص ولم آخذ أيضاً ذلك الشال القذر. إذا أردتم أن تعرفوا فقد أخذت نصف جوال سكر ودستة واحدة من الجوارب الحريمية وقطعتين من لحم الخنزير. أما عمليات الاحتيال هذه فلن أدعها تمر باسمى. إن عملى هو حراسة مصالح الحكومة وما يجرى هنا يغضبنى كإنسان سوفيتى مع قائمة المسروقات المنحطة هذه التى يمررونها باسمى.

قال المدير:

- نحن عرضة للخطأ دون شك. لكننا سنتأكد الآن من كل شىء، وسأكون سعيداً للغاية إذا اتضح أن المسروقات أقل. سنقوم بجرد كل شىء من جديد.

وارتفع صوت عاملة الخزانة:

- أسفة.. الكوبونات كانت مختفية فى الركن. الكوبونات موجودة، لكن المقص غير موجود.

زعق الحارس:

- آخ.. والله لأبصق الآن فى عينها التى لا تستحى! قلت إنى لم آخذ المقص من عندها، ابحثى باهتمام، أحسن لكِ يا رِجْل الفرخة! وإلا خلعتك من وراء الخزانة الآن فوراً.

وعادت عاملة الخزانة تقول:

- آه.. مضبوط.. وجدته، كان مختفياً راقداً وراء الخزانة

هناك.

وقال المحاسب:

ـ لقيت الشال، كان فى جيبى الجانبى.

وهنا قال المدير:

ـ طيب.. اكتب المحضر من جديد. فعلاً المسروق نصف جوال فقط من السكر.

انفجر الحارس:

ـ احسب عدد قطع اللحم، وإلا فأنا غير مسئول عما سيبدر منى! ومادامت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد فإن عندى شاهدة تؤكد أقوالى.. خالتى أنيوشا.

وسرعان ما أنهوا إحصاء المسروقات، واتضح أنها تطابق بالفعل ما اعترف به الحارس تماماً.

وقادوا الرجل إلى قسم الميليتسيا تحت الحراسة. واحتجزوا خالته أنيوشا التى كانت المسروقات مخبأة عندها.

وهكذا، كما ترون بأنفسكم، سرق البعض ما قيمته "كوبيك" واحد فحوله البعض الآخر إلى ألف. ويحس الإنسان فى مثل هذه الحالة بالنشاط العصرى، والتحليق المبدع للفكرة الفلسفية، وهو أمر كما يقولون تستحيل الحياة بدونه الآن. بغير ذلك لا يسرق الآن إلا المغفل الذى سرعان ما يقع فى أيدى السلطة ■

□ □ □

❖ الكراهية ❖

■ ميخائيل شولوخوف

في الحرب، تشبه الأشجار البشر، فتلاقي كل شجرة مصيرها الخاص، بطريقتها الخاصة. وقد تسنى لي أن أرى الأشجاروهي تتهاوى من قصف نيران مدفعيتنا في مساحة كبيرة بإحدى الغابات، وكان الألمان قد تحصنوا بها بعد أن أجبرناهم على التراجع عن الغابة "س"، وظنت قوات العدو أن إقامتها ستطول في الغابة الجديدة، ولكن الموت حصدها حصداً مع الأشجار، ورقد الجنود الألمان موتى عند جذوع أشجار الصنوبر المتهدمة، وقد تقيحت جثثهم أشلاء مقطعة وسط نباتات السرخس، وفاح عطر "الراتينج" بشدة من أشجار الصنوبر المنهارة، إلا أنه لم يبدد في الجو الرائحة الحادة، النفاذة، الخانقة التي انبعثت من نتن الأبدان المتحللة. وبدا وكأن الأرض نفسها وحفر القنابل ذات الحواف الخشنة داكنة السمرة، تنشر في الأجواء رائحة القبور.

ساد سكون الموت وجلاله ذلك المرج من الغابة الذي حرثته قنابلنا ولكن شجرة بتولا واحدة، نجت من الموت بمعجزة وظلت واقفة في منتصف المرج، والريح تؤرجح أفرعها التي أصابتها الشظايا وتغمغم بين أوراقها الغروية اللامعة.

تقدمني جندي المراسلة ونحن نعبر المرج، ورأيته يتحسس ساق البتولا بنعومة، ثم تساءل بدهشة صادقة يغمرها العطف: "كيف نجوت أيتها العزيزة؟".

حين تصيب القذائف شجرة صنوبر، فإنها تنقصف كأنها جزت بمنجل، ولا يبقى منها سوى رأس مشرشر تبرز منه الأشواك ينز صمغ الشجرة. أما شجرة البلوط فتواجه مصيرها على نحو مختلف، وقد رأيت شجرة بلوط عتيقة نهضت على ضفة نهير، فأصابت ساقها إحدى القذائف الألمانية واخترمتها ثغرة متعرجة، فتيبس نصف الشجرة العلوى، وانحنى - عند الانفجار - نصفها الآخر ومال صوب المياه. وبعث الربيع الشجرة من الموت على نحو مذهل، فاكتست أفرعها بالأوراق الجديدة النامية، ولعل الأفرع المحنية ما تزال تشرب من الماء الجارى فى طفوها على سطح النهير، ونصف الشجرة العلوى ما يزال بلهفة يمد نحو الشمس أوراقه المشدودة الدقيقة.

***

جلس الملازم "جيراسيموف" عند مدخل الخندق، وشرع يقص علينا بالتفصيل وقائع المعركة التى خاضتها كتيبته اليوم، وكيف نجحت فى صد هجوم من دبابات العدو.

كان "جيراسيموف" طويل القامة، محدودب الظهر قليلاً، وكتفاه عريضتان مرتفعتان ولذا بدا مثل الصقر، بينما كان وجهه نحيفاً هادئاً وقد رانت عليه لا مبالاة غريبة. كان يسرد علينا ما جرى بصوت غليظ مشروخ وبين وقت وآخر يزر عينيه المتوهجتين من الإرهاق؛ وفيما ندر كان يشبك أصابع يديه بمفاصلها الناتئة ببعضهما البعض، ومن الغريب أن هذه الحركة التى لم تكن تنسجم مع بنيته القوية وملامح وجهه الشجاع الحيوى، كانت تعبر بشدة عن فاجعته الخرساء أو استغراقه

العميق فى أفكار مضنية.

وفجأة توقف "جيراسيموف" عن حديثه، وانقلب لون وجهه فى لحظة: فشحب خداه السمراوان، واختلجت عضلات فكه السفلى، وحدج بتركيز وثبات أمامه وقد توهجت عيناه بكراهية ضارية لا تخمد حتى أننى استدرت بشكل تلقائى ناظراً فى الاتجاه الذى تطلع نحوه؛ وهناك رأيت ثلاثة من الألمان الأسرى يمرون عبر خطوط دفاعنا الأولى متجهين نحو الغابة، يسير من خلفهم أحد جنودنا ببطء فى ردائه الصيفى الذى أحالت الشمس لونه فصار أبيض تقريباً بينما تدلت خوذته خلف رأسه وراحت بندقيته تتأرجح فى يده على إيقاع خطواته، وللحظة غشى عينى ومض ذؤابة نصل بندقيته فى الشمس.

مشى الألمان الثلاثة فى أحذية ملطخة بالوحل الأصفر، يجرجرون أقدامهم بتثاقل. كان الأول منهم رجلاً تجاوز سن الشباب، غائر الوجنتين،نما على وجهه شعر داكن، خشن رقصير، وحين دنا فى سيره بمحاذاة الخندق ألقى علينا نظرة ذئبية جهمة، ثم انحرف قليلاً عن مشيته وهو يعدل وضع خوذته المعلقة إلى وسطه. حينئذ وثب "جيراسيموف" مندفعاً من مكانه وهو يصيح فى جندى الحراسة بصوت حاد كالعواء:

ـ ما هذا؟ هل تقوم بنزهة معهم؟ أسرع الخطو.. قلت لك بسرعة.. هيا.

كان واضحاً أنه يود أن يقول أكثر من ذلك، لكن أنفاسه كانت قد تقطعت فى سورة غضبه، فاستدار على عقبيه بعنف وانطلق يهرول هابطاً السلم إلى الخندق. كان المسئول السياسى جالساً،

فأجاب على نظرتى المندهشة قائلاً بصوت خفيض:

- ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً، فأعصابه مرهقة للغاية؛ لقد عاش تجربة الأسر فى معسكرات الألمان. ترى ألم يكن لديك علم بذلك؟ حينما يتوفر لديك الوقت، جاذبه أطراف الحديث، ودعه يقص عليك تجربته تلك. لقد عانى الكثير فى معسكرات الاعتقال النازية، فلم يعد يطيق النظر إلى جنود النازية الأحياء، نعم الأحياء. أما القتلى منهم فإنه يتطلع إليهم بهدوء، بل ولعله يحس بنوع من الراحة فى تلك اللحظات، لكنه عند رؤيتهم أحياء أسرى يغلق عينيه على الفور ويمكث جالساً والعرق يتصبب منه، أو يتحول عنهم، وينصرف إلى مكان آخر.

ودنا المسئول السياسى منى وقد خفت صوته حتى قارب الهمس:

- لقد اشتركت معه فى شن هجوم على العدو مرتين. كنت معه ورأيته أثناء المعارك قوياً كحصان، يكشف لك فى نيران الهجوم عن قدراته. لقد تسنى لى أن أرقب الكثيرين من الرجال المقاتلين، لكنى لم أر مثله مدافعاً مهاجماً بمؤخرة ونصل البندقية. شيء مذهل لو تدرى.

***

فى تلك الليلة، قامت مدفعية الألمان الثقيلة بقذف مواقعنا بنيران متلاحقة على فترات زمنية متساوية، ومن بعيد كانت تتناهى إلى أسماعنا أصوات إطلاق القذائف، ثم تنقضى بضع ثوان من السكون لنسمع عالياً فوق رؤوسنا أزيز القذائف منتشرة كالنجوم فى السماء بصوتها المعدنى الذى يزداد قوة،

ليضعف ويتلاشى بالتدريج خلفنا عند الطرق التى تزدحم نهاراً بعربات نقل الذخيرة إلى خط القتال، ومن هناك يدوى عالياً صوت الانفجارات المتتالية، وتومض القذائف مرتفعة فى الأجواء بأعمدة اللهب الأصفر.

فى فترات الهدوء التى تتخلل إطلاق النيران، يسود الهدوء الغابة ويصبح بوسعك أن تسمع طنين الباعوض عند المستنقع القريب ونقيق الضفادع وهى تتنادى قلقة بعد إطلاق النيران.

كنا نرقد تحت شجيرة جوز، حين شرع الملازم "جيراسيموف" يروى لنا قصته بتمهل، وهو ينش - من وقت لآخر - الباعوض بفرع شجرة مكسور. وسأحاول أن أروى لكم هنا قصته، بقدر ما تسعفنى الذاكرة..

بدأ "جيراسيموف" قائلاً:

"قبل الحرب كنت أعمل ميكانيكياً فى مصنع بغرب سيبيريا، وفى السنة الماضية، فى ٩ يوليو، استدعونى إلى الخدمة العسكرية، وعند سفرى وقفت أسرتى تودعنى: زوجتى وولدانا وأبى العاجز. وانهمرت دموع زوجتى كما يحدث عادة فى تلك المواقف، ومع ذلك والتنى بنصائحها:

- "استقتل فى الدفاع عن بلدنا وعنا، ولا تخف الموت ساعة الجد، المهم أن نخرج من هذه الحرب منصورين". وأذكر أننى ضحكت عقب كلماتها، وقلت لها: "هل أنتِ زوجتى أم محرض الأسرة السياسى؟ من تظنين نفسك؟ على أيَة حال كونى واثقة، فأنا رجل كبير وعاقل ولا تشغلى رأسك بخصوص النصر، تأكدى أننا سننتزعه مع حلوق جنود العدو".

وبطبيعة الحال، كان أبى ساعة السفر أكثر تماسكاً من زوجتي، ولكن لم يكن هناك مفر من الإنصات إلى نصائحه وتوصياته:

- "يا فيكتور يا ولدى.. كن حريصاً فأنت من عائلة "جيراسيموف"، واسمنا معروف وله وزنه، فاذكر أنك سليل أسرة من العمال، جدك كان يعمل عند عائلة "ستراجانوف" وظلت عائلتنا مئات السنين تستخرج الحديد للبلد، فكن كالحديد في الحرب، الحكومة حكومتك وهى التى عينتك قبل الحرب رئيساً للمخازن.. أتفهمني؟ اضرب أعداءنا بشدة".

قلت له:

- "سيكون كل شيء على ما يرام يا أبى، فاطمئن".

فى طريقى إلى محطة القطار عرجت على مجلس المنطقة الحزبى. وكان سكرتير المجلس رجلاً جافاً فى معاملاته، يناصر كل ما هو منطقى فحسب، وفكرت بينى وبين نفسى: إذا كان أبى وزوجتى لم يتركانى أسافر من دون "توعية وتعبئة"، فلا شك أن سكرتير المجلس الحزبى لن يعتقنى أبداً، وسيلقى علىَّ خطبة عصماء تستغرق نصف ساعة على الأقل.. نعم.. سيلقى خطبة من كل بد!

قال لى الرجل:

- اجلس يا "جيراسيموف". فلنقعد دقيقة للطريق قبل السفر(١).

---

(١) من عادات الروس، أنه إذا تهيأ الإنسان للسفر، جلس معه الأهل والأصدقاء دقيقة صامتين، ليصبح طريقه طريق السلامة. المترجم.

جلسنا دقيقة ونحن صامتين، ثم نهض سكرتير المجلس، ولمحت كيف غام زجاج نظارته. وقلت لنفسي: تفضل انظر ما يجرى اليوم من أشياء غريبة.

وقال لى السكرتير: ليس هناك ما يستحق الإيضاح يا "جيراسيموف". أنى أذكرك منذ كنت ولداً صغيراً ترتدى ربطة عنق "الرواد"، ثم حين كبرت وصرت عضواً بـ "الكومسومول"، وعرفتك بعد ذلك - رجلاً شيوعياً - على امتداد عشرة أعوام. سيقلك القطار إلى جبهة القتال بعد قليل، فاضرب أولئك السفلة من دون شفقة أو رحمة. منظمتنا الحزبية هنا تأمل أن تسمع عنك كل ما هو مشرف".

للمرة الأولى فى حياتى عانقت سكرتير المجلس وقبلته. لقد مر اللقاء على عكس ما تصورته حقاً، ليس من السهل أن تعرف الإنسان. لقد رأيت فى الرجل الجاف كالخبز المحمص إنساناً آخر. وغمرنى دفء من مودته فخرجت من عنده سعيداً وقد هزنى اللقاء.

عند محطة القطار، روّحت عنى زوجتى بدورها. ويعرف الجميع أن زوجة تودع زوجها الذاهب إلى الجبهة لا يمكن أن تكون سعيدة! أربكها الفراق الوشيك، وجعلها الحزن مشوشة، مشتتة، وطيّر أفكارها من رأسها، وبدا لى طوال الوقت أنها تريد أن تقول لى شيئاً مهماً للغاية لكنها لا تعرفه.. حينما شرع القطار يتحرك أخذت تهرول بمحاذاة شباك العربة الذى أطل منه، ولم تفلت يدى من يدها وهى تقول بلهوجة: "انتبه لنفسك يا فيكتور، إياك أن تمرض فى الجبهة". وقلت لها: "ماذا جرى لك يا

نادية؟ تأكدى أننى لن أمرض مهما حدث، وخاصة أن الطقس هناك ممتاز لا يعرف التقلبات".

كان الوداع مراً على نفسى، رغم أن ما قالته زوجتى من كلمات حبيبة وحمقاء قد روّح عن نفسى، لكن طعم الوداع المرير كان عالقاً بروحى، واندلعت فى نفسى كراهية عنيفة للألمان. وقلت لنفسى: لقد بدأ جارنا الألمانى عديم المبدأ بالعدوان، فليتماسك الآن، فسوف نطحنهم إلى النهاية.

صمت "جيراسيموف" عدة دقائق، لينصت إلى الأصوات المتفجرة من المدافع الرشاشة وهى تتبادل النيران بعيداً عن خط القتال الأمامى، وحينما سكتت المدافع، واصل حديثه كما بدأه فجأة:

ـ "قبل نشوب الحرب، كانت المعدات الألمانية ترد من ألمانيا إلى المصنع الذى عملت به، وعند تجميع الآلات فى الورشة، كنت أحياناً أقلب بين يدى مرة واثنتين وخمس كل جزء دقيق من تلك المعدات واتأمله متفحصاً من كل الجوانب.. فلا يسعنى إلا الاعتراف بمهارة الأيادى التى صنعت ذلك. وكنت اقرأ أعمال الكتاب الألمان وأقدرهم حق قدرهم، واعتدتُ أن أنظر إلى الشعب الألمانى عامة باحترام. واشتعلت الحرب بداية فى أوروبا الغربية، فكنت فى بعض الأوقات أحس بالأسف لأن شعباً كادحاً وموهوباً مثل الشعب الألمانى يحتمل بصبر نظام النازية السافل.. وحين مضى القطار مسرعاً فى طريقه إلى الجبهة خطر لى أن الجيش الألمانى متفوق، وأسلحته ومعداته ممتازة، ومع ذلك فإن التصدى لمثل ذلك العدو وكسره نصفين أمر مشرف

وباعث على الفخر. والحق أننا لم نكن - عام ١٩٤١ - قشاً يمكن حرقه بسهولة، كما أنني لم أتوقع للحظة واحدة أن يقاتلنا ذلك العدو قتالاً نظيفاً، فعن أى شرف يمكن أن يدور الحديث حين يتعلق الأمر بالفاشية؟! بالرغم من هذا، فلم يخطر ببالى أبداً أنه سيتحتم علينا خوض المعارك ضد عدو بمثل هذه السفالة وموات الضمير التى كشف عنها جيش النازية الهتلرى.

وصلت كتيبتنا إلى الجبهة فى نهاية شهر يوليو. وفى الصباح الباكر، فى السابع والعشرين من ذلك الشهر، شاركنا - للمرة الأولى - فى المعارك. كان القتال فى البداية مخيفاً بدرجة ما وذلك لحداثة عهدى به. وقد تفوق العدو علينا فى بداية التحامنا به، ولكن مع حلول المساء كانت كتيبتنا قد تمكنت من استخدام السلاح، وتبدد خوف المعركة الأولى، فتقدم الرجال وتوالت اللطمات على وجه الألمان فكسرنا لهم أسنانهم، وطردناهم من القرية التى كانوا بها، بل وأسرنا منهم - فى نفس الموقعة - خمسة عشر جندياً. أذكر كيف قاد رجالنا الأسرى الألمان، أذكر ذلك كأنه يجرى الآن أمام عينى.. كانت وجوههم شاحبة، وقد حط عليها الذعر، أما رجال كتيبتى فقد تناثروا يسترخون بعد المعركة، وأخذ كل منهم يقدم للأسرى ما فى وسعه: أحدنا أتى إليهم بدلو ممتلىء بالشوربة، والآخر بسجائر، والثالث قدم إليهم أقداح الشاى. كانوا يقومون بذلك وهم يخبطون ظهور الألمان، وينادونهم "يا زملاء"، ويسألونهم "ما مصلحتكم فى هذه الحرب أيها الزملاء؟".

أثناء ذلك، كان أحد المقاتلين القدامى من رجالنا يتطلع إلى

ما يجرى، ولبث مدة يتأمل تلك اللوحة المؤثرة، ثم قال لنا: "لقد أثار هؤلاء الزملاء شفقتكم.. نعم.. فكلهم في الأسر يصبحون "زملاء"، ليتكم رأيتم ما يقوم به هؤلاء "الزملاء" هناك وراء خطوط القتال، وكيف يعاملون جرحانا والسكان العزل". قال ذلك ثم استدار ومضى، بعد أن انصبت علينا كلماته كأنها ماء بارد.

في فترة لاحقة انتقلنا من حالة الدفاع إلى الهجوم، متوغلين في الأراضي التي احتلها الألمان، وهناك.. شاهدنا ما يبعث على الرعب حقاً: القرى التي أحرقت عن آخرها، مئات النساء والشيوخ والأطفال وقد تناثرت جثثهم في كل مكان بعد أن أفرغت فيهم طلقات الرصاص، وجثث من كانوا في الأسر من جنودنا وقد مثلوا بها، وأبدان النساء المغتصبات وقد قتلن بوحشية، بل وشاهدنا جثث البنات الملقاة على الطريق، وجثث البنات القاصرات أيضاً.

لكن صورة بالذات لم تفارق ذاكرتي من بين كل ما رأيته: كانت صبية لا يتجاوز عمرها الحادية عشرة، لا أكثر من ذلك، والأرجح أنها كانت تسير قاصدة المدرسة، فأمسكوا بها وجرجروها بالقوة إلى الحديقة القريبة، وهناك اغتصبوها.. ثم أفرغوا فيها رصاصهم. مازلت أراها ملقاة بين أوراق حبات البطاطس المدعوسة وقد تبعثرت من حولها كراسات المدرسة وكتبها غرقى في الدماء. لم تكن أكثر من بنت صغيرة، طفلة تقريباً، رقدت وقبضة يدها متشنجة لا تفلت ذراع الحقيبة المدرسية المفتوحة. لا أدرى لماذا شجوا وجهها الصغير بساطور على ذلك النحو الوحشي؟ غطيناها بقطعة من قماش الخيام،

ووقفنا أمامها صامتين. تفرق الرجال دون صوت، وظللت واقفاً وأخذت وأنا أرتجف من الانفعال اقرأ بصوت خفيض: "الجغرافية الطبيعية. للمدارس الابتدائية والاعدادية". كان ذلك الكتاب الملقى على الأعشاب مألوفاً، فهو الكتاب المقرر على ابنتى التلميذة بالسنة الخامسة الابتدائية.

كان ذلك فى "روجين"، وعند "سكفير" وقع بصرنا على واد ضيق عذبوا فيه رجالنا الأسرى. لقد بدا المكان مثل حوانيت الجزارة تقريباً: كانت جذوع الأبدان البشرية تتدلى من الأشجار، مدماة، بلا أياد ولا أقدام، وقد سلخوا جلودها. وفى قاع الوادى رأيت كومة ملقاة فى ناحية، كومة من ثمانية من رجالنا. وكان من المستحيل أن تعرف أية ذراع، وأية ساق، لأية جثة من الرجال. كومة من اللحم المجزور.. لا أكثر، تراصت فوقها مثلما تتراص الأطباق ثمانية أغطية من أغطية الرأس.

أتظن أن كلماتى قد تصف لك أو تعبر عما شاهدته؟ لا. ثمة أشياء تعجز الكلمات عن تجسيدها، لابد لك أن ترى بنفسك ما وقعت عليه عيناى.

صمت "جيراسيموف" لفترة من الوقت، وسألته: "هل يمكننى هنا أن أشعل سيجارة؟" أجابنى بصوته الأجش: "نعم، ولكن داريها فى قبضتك". وأشعل سيجارة هو الآخر وواصل قائلاً:

- "لعلك تفهمنى، لو قلت لك إننا صرنا كالوحوش الضارية، بعد أن روعنا كل ما اقترفه جنود العدو، ولم يكن بوسعنا ألا نتوحش. لقد أدركت كتيبتنا كلها أننا نحارب ذئاباً مسعورة ولغت فى دمائنا فانتشت وتضخمت كالغيلان. كانوا يذبحون

ويهتكون أعراض أخواتنا ويعذبون أهلنا بنفس الدقة والمهارة التى لمستها بنفسى فيما صنعوه من معدات ومخارط وآلات.

فيما بعد، أرغمونا على التقهقر والانسحاب، ومع ذلك كنا أثناء تراجعنا نشتبك معهم، ونتصدى لهم كالجن الأزرق. كان أغلب رجال كتيبتى من سيبيريا، واستشهد الكثيرون منهم فوق أرض أوكرانيا، حيث دارت تلك المعارك دفاعاً عن أوكرانيا، وقد حارب الرجال ببسالة واستماته لا نظير لها، وبالرغم من تقهقرنا إلا أننا أذقناهم الويل على أصوله ودفنا منهم عدداً كبيراً.

شد الملازم "جيراسيموف" دخان سيجارته بنهم، وتابع بنبرة أرق:

- ما أجملك يا أرض أوكرانيا الطيبة، وما أجمل الطبيعة هناك.. لقد صارت كل قرية صغيرة، وكل شجرة عزيزة على قلوبنا، ربما لأننا بذلنا دماءنا وأرقناها هناك، والدم كما يقول المثل يخلق القرابة والمودة، وكنت فى كل مرة ننسحب فيها من إحدى القرى أحس بالألم يعتصر قلبى، وكأن لعنة قد حقت عليه. كان تقهقرنا يثير شعوراً عميقاً بالأسف المرير. وفى أثناء تراجعنا كان الرجال يتجنبون النظر إلى بعضهم البعض.

حينذاك، لم يطرأ لى أنه قد يحل علىَّ يوم أكون فيه أسيراً لجنود العدو. لكن ذلك ما جرى.

فى سبتمبر، اشتدت المعارك عنفاً، وأصبت - للمرة الأولى - بجرح لم يمنعنى من البقاء مع كتيبتى. وفى الحادى والعشرين من نفس الشهر فى الموقعة التى دارت حول "دينيفسكى" و "بالتافسكى"، أخذت دبابات العدو تخترق جناحنا الأيسر، واشتد

هجومها حتى نجحت فى إحداث ثغرة، فنفذ المشاة منها متدفقين بكثرة، وقمنا بصد هجومين من الدبابات وأثناء ذلك دمرنا وأحرقنا ست دبابات وعربة مصفحة، ثم تراجعنا إلى حقل ذرة واسع فلاحقونا هناك، وأسقطنا منهم مائة وعشرين جندياً، وحينذاك استعانوا بمدفعية الهاون الثقيلة، وتكاثفت النيران علينا فاضطررنا لتسليم التلة التى كانت فى أيدينا منذ منتصف النهار وحتى الساعة الرابعة، وأخذنا فى الانسحاب. وعانت كتيبتى من خسائر كبيرة فى الأرواح، ولكننا كسرنا الحصار المضروب علينا وخرجنا منه ونحن نقاتل.

فى ذلك اليوم كان الجو حاراً منذ مطلع النهار، ولم تعبر السماء سحابة واحدة، واشتد قيظ الشمس حتى شعرنا أن الجو قد خلا من نسمة هواء نتنفسها، وكنا نعانى من عطش قاس وقذائف العدو تلاحقنا بكثافة ونحن ننسحب، واشتد علينا العطش حتى اسودت شفاه الرجال، وأثناء ذلك كنت أعطى الأوامر لتنظيم تراجعنا بصوت أجش غريب لم أتعرف عليه، وكنا نمضى فى اتجاه وهدة بعيدة حين انفجرت أمامى بالضبط إحدى القذائف، وأذكر أننى رأيت عموداً من الغبار الهائل يرتفع من الأرض إلى أعلى، ولم أر سواه.

لا أدرى كم من الوقت ظللت راقداً على الأرض فاقد الوعى، لكنى بدأت أسترد وعيي على صوت خطوات تقترب منى. رفعت رأسى فوجدتنى راقداً فى مكان غير الذى سقطت فيه، وقد نزعت عنى ملابسى العسكرية، وكذلك لم أجد خوذة رأسى. ولمحت كتفى مضمدة كيفما اتفق ورأسى ملفوفاً بربطة شاش

غير محكمة تدلى طرفها فوق صدرى. لقد اخترقت إحدى الشظايا خوذتى نافذة إلى رأسى، بينما استقرت شظية أخرى فى كتفى اليمنى. وتصورت للحظة خاطفة أن رجال كتيبتى - حين سقطت فاقد الوعى - قاموا بنقلى إلى مكانى الجديد، وضمدوا جراحى أثناء سيرهم، ورفعت رأسى متوقعاً أن أرى زملائى من حولى.. لكن جنود العدو هم الذين هرولوا نحوى، وهم الذين ردونى إلى وعيى بوقع خطواتهم. رأيتهم بوضوح ودقة كما ترى الأشخاص على شاشة سينما واضحة. تحسست ما حولى، فلم أعثر على بندقية أو مسدس أو قنبلة يدوية. وأدركت فى التو أن أحد رجالى فضل أن يجردنى من سلاحى وحقيبة اللوحات الطوبوغرافية.

وقلت لنفسى: "هذه هى النهاية". وتناوبت علىَّ مختلف الانفعالات والأفكار التى لم يسعفنى الوقت لاستيضاحها، فإذا كانت قصتى هذه قد تنفعك مادة لرواية تكتبها، فتخيل أنت ما يرد إلى العقل من أفكار فى مثل هذه المواقف واملأ هذه الثغرة من قصتى.. على أية حال، أخذت جنود العدو تدنو منى، ودهمنى شعور بمهانة رقدتى فى انتظار الموت.. تمنيت لنفسى الموت بكل الطرق إلا تلك.. هل تدرى قصدى؟ ولا أدرى كيف استجمعت قواى متكئاً على ركبتى مستنداً إلى الأرض بيدى بحيث أنى وقفت على قدمى منتصباً أمام الألمان حين وصلوا إلىَّ. وقفت، ولكنى كنت أتطوح فى مكانى، وأصابنى الرعب من أن أقع على الأرض، فيقضون علىَّ وأنا راقد لا حول لى ولا قوة. لا أذكر الآن وجهاً واحداً من وجوه أولئك الجنود الذين أحاطوا بى وهم

يقهقهون. أذكر فقط أني صرخت فيهم: "اقتلوني.. اقتلوني أيها السفلة قبل أن أسقط". ولطمني أحدهم على رقبتي بمؤخرة البندقية فوقعت على الأرض ولكني وقفت في الحال مرة أخرى. وعلت قهقهاتهم، وأشار أحدهم بيده كأنما يقول لي: "سر إلى الأمام إذا استطعت.. تقدم". وسرت نحوه بالفعل ووجهي ملطخ بالدماء الجافة، تجري عليه من جرح رأسي خيوط من دم متدفق، دافيء ولزج. واعتصر الألم كتفي المصابة، وتمنيت من أعماقي أن أرقد على الأرض من دون حركة. ولكني واصلت سيري إلى الأمام، ليس بدافع إنهاء حياتي أو الوقوع في الأسر خلاصاً من آلامي، لكن الرغبة في النجاة هي التي قادتني، سرت متغلباً بمجهود هائل على دوار الرأس ورغبتي في القيء.. سرت فأدركت أنني مازلت حياً وأستطيع أن أفعل ما أريد. ألم واحد فاق كل الآلام: الظمأ المعذب الذي شقق حلقي الجاف، وبينما كانت قدماي تخطوان تماوجت أمام عيني غلالة سوداء. كنت - دون أن أدري - فاقد الوعي تقريباً ومع ذلك كنت أتقدم إلى الأمام وقد خلت أنني ما أن أشرب فأرتوي وألتقط أنفاسي مستريحاً قليلاً حتى أعدو هارباً.

عند طرف من أرض مشجرة، جمعوا كل من وقع في الأسر. أوقفونا في صف واحد، أغلبه من الجرحى، من فرق وألوية جاورتنا، ومن كتيبتي لحظت اثنين فقط.

سأل الضابط الألماني بروسية ركيكة:

- هل بينكم موجهون سياسيون أو ضباط من ذوي الرتب الكبيرة؟

ولزم الجميع الصمت. فقال من جديد:

- فليتقدم الموجهون السياسيون والضباط خطوتين للأمام.

ولم يتحرك أحد من بيننا. وسار الضابط الألماني ببطء مستعرضاً وجوهنا واحداً بعد الآخر، وهو يسأل كل منا: "هل أنت موجه سياسي؟". ولم يكن يتمهل لكي يسمع الإجابة بل كان يأمر من يقع عليه اختياره بالخروج من الصف. وهكذا انتخب مجموعة من مختلف الجنسيات: من الروس، والأوكرانيين، والأرمن وغيرهم. وقادوهم بعيداً عنا في ناحية ثم أفرغوا فيهم نيران المدافع الرشاشة ورأيناهم يتساقطون مضرجين بدمائهم. بعد ذلك فتشونا بسرعة، وعثروا على محافظ عند البعض منا فاستولوا عليها وعلى كل الأشياء الشخصية. ولم أكن أحمل بطاقتي الحزبية داخل محفظتي، خشية أن أفقدها، كنت أخفيها في الجيب الداخلي من السروال، ولم يعثروا عليها أثناء التفتيش السريع. حقاً إنه لمخلوق عجيب هذا الإنسان، فقد كنت أعرف أنهم إذا لم يقتلوني فيما بعد أثناء محاولة هرب، فسيقضون عليَّ أثناء الطريق إذا لم استطع أن أجاري الآخرين في سرعة مشيهم من كثرة ما فقدت من دماء، وعلى الرغم من كل ذلك، حينما انتهى التفتيش وظلت بطاقتي الحزبية معي، غمرتني بهجة عجيبة حتى أنني نسيت للحظة لهب الظمأ.

صفونا في طابور واحد ودفعونا إلى السير في اتجاه الغرب. وكان يحرسنا على جانبي الطريق عدد كبير من جنود العدو، غير عشرة من ركاب "الموتوسيكلات". أجبرونا على المشي بخطوة سريعة، وخارت قواي بعد فترة صغيرة فسقطت واقعاً على

الأرض مرتين، وكنت أنهض بسرعة من جديد مواصلاً السير، لأنني أعرف أنهم سيطلقون النار عليَّ فوراً إذا طالت رقدتي لأكثر من دقيقة واحدة، هذا ما وقع لجندي كان يمشي أمامي، سار بصعوبة بالغة وهو يئن طيلة الوقت، بل وكان يصرخ أحياناً من شدة الألم الذي ينتابه من ساقه الجريحة. مشينا أكثر من كيلو متر على هذه الحال، إلى أن توقف وصرخ بصوت عال: "لم أعد أستطيع.. لا.. ليس بوسعي.. وداعاً أيها الزملاء". وانهار جالساً في وسط الطريق. أسرع القريبون منه لمعاونته على النهوض، وأوقفوه على قدميه عدة مرات، لكنه كان في كل مرة يتهاوى على الأرض من جديد.

وأذكر، كأنما في حلم، وجهه الشاب الشاحب وحاجبيه المقطبين، وعينيه المغرورقتين بالدموع. واصل الطابور سيره إلى الأمام. وظل هو وحده ملازماً مكانه خلفنا. واستدرت برقبتي إلى الوراء، نحوه، وشاهدت جندياً من راكبي الموتوسيكلات يقترب منه، ودون أن ينزل عن الموتوسيكل، أخرج مسدسه من جرابه وصوبه نحو أذن زميلنا وأطلق النار عليه دون كلمة واحدة.

حين وصلنا إلى شاطيء النهر، كان جنود العدو قد أفرغوا رصاصهم في عدد من رجالنا الذين عاقتهم جراحهم عن مواصلة السير.

نظرت إلى النهر، وإلى جسر مدمر كان يصل بين ضفتيه، ورأيت عربة نقل مقلوبة تسد جانباً من الطريق، ثم سقطت على وجهي. ترى هل فقدت وعيي؟ كلا. لقد رقدت وفمي ممتليء بالتراب، وأنا أكز على ضروسي من قهري، حتى تفتت التراب

بينها. لكنى لم أستطع أن أنهض واقفاً. ومر زملائى من جانبى، وهمس أحدهم بصوت خافت: "انهض وإلا قتلوك فوراً". وضغطت عينى بعنف ومزقت فمى بأصابعى، لعل الألم يردنى إلى نفسى فأنهض. وتخطانى طابور الأسرى وبدأت أسمع حفيف عجلات الموتوسيكل يدنو منى. وقمت. ورحت أمشى مترنحاً كالمخمور، بل وأرغمت نفسى على اللحاق بالطابور والانتظام فى مؤخرته.

سبقتنا دبابات العدو وعرباته الآلية وعبرت النهر وعكرت ماءه، ومع ذلك فقد عببنا من ذلك الماء بنهم، وشربنا ذلك الطمى البنى الدافىء، وبدا لنا أنه من أصفى مياه الينابيع. بللت رأسى وكتفى بالماء، فانتعشت وعادت إلىَّ قواى. الآن أصبح بوسعى أن أمشى آملاً أننى لن أنهار واقعاً، ولن أرقد على الأرض.

اجتزنا النهر، ومضينا أبعد قليلاً، ومن أمامنا أقبل علينا رتل من دبابات العدو يتحرك صوبنا، وما أن رأى سائق الدبابة التى بالمقدمة أننا من الأسرى حتى ضغط على دواسة الوقود إلى النهاية مندفعاً بدبابته بأقصى سرعة نحو الصفوف الأولى منا، فهرس من هرسه من الرجال وسحق الآخرين تحت حديد الدبابة.

نظر جنود العدو من المشاة وراكبى الموتوسيكلات إلى ذلك المشهد وهم يقهقهون. وأطل سائقو الدبابات برؤوسهم وهم يصيحون ببعض الكلمات ويلوحون بأياديهم فى استحسان. مرة أخرى رتبوا صفوفنا وحادوا بنا عن الطريق لنواصل السير. يا لها من فكاهة حقاً؟!

لم أحاول الهرب لا في مساء ذلك اليوم، ولا في الليل أيضاً. كنت أعرف أنني لن أوفق بسبب الإنهاك وما فقدته من دماء، فضلاً عن تشديد الحراسة علينا. ولكني، لعنت نفسي مراراً فيما بعد لأنني لم أحاول الهرب في تلك الليلة.

في الصباح قادونا عبر إحدى القرى المحتلة، وتقاطر جنود العدو من كل ناحية ليتفرجوا علينا. وأرغمتنا قوات الحراسة على الركض، لكي يشاهدنا الجميع على امتداد الطريق بالقرية. واستهدفوا بذلك تحقيرنا أمام زملائهم. كنا نعدو، والرصاص من خلفنا يلاحق من يسقط من الإعياء أو يتخلف قليلاً.

وعند حلول المساء كنا قد بلغنا - أخيراً - معسكر الأسرى المخصص للعسكريين. كان المكان في الأصل مجرد "جراج" كبير للعربات والجرارات، فأحاطه جنود العدو بالأسلاك الشائكة الكثيفة. ووقفنا جميعاً في فناء "الجراج" كتفاً إلى كتف. سلمونا لحراس المعسكر، فأخذ هؤلاء بدورهم يدفعوننا بمؤخرات البنادق إلى داخل الحوش. ولو قلت لكم إن ذلك الحوش هو الجحيم بعينه، أكون كأني لم أقل شيئاً: لم تكن تتوفر به دورات مياه، فكنا نبول ونتبرز حيثما أمكن، في كل الأركان، وفيه كنا ننام وسط وساخة الطين ذي الرائحة النتنة، وفيه كنا نقف صفوفاً حين يأمروننا بذلك. وكانوا يصرفون لنا الطعام والماء مرة واحدة في اليوم، حفنة من الجريش النيىء أو بذور عباد الشمس المتعفن مع قدح واحد من الماء، لا أكثر. وفي بعض الأيام كانوا ببساطة ينسون صرف الطعام لنا. بعد يومين من إقامتي في المعسكر انهمرت الأمطار بغزارة، فذابت الأوساخ المتجمدة

بأرض الحوش حتى أننا كنا نخوض فيها إلى الركب. وفي صباح اليوم التالي أخذ البخار يتصاعد من أجسام الرجال المبلولة كأنه البخار المتصاعد من أبدان الخيول.. وتساقطت الأمطار بلا توقف ليلة بعد الأخرى، وفي كل ليلة كان يموت منا عشرات الرجال الذين أنهكهم الضعف وسوء التغذية.

في ذلك الحوش، وفي تلك الظروف، اشتدت عليَّ آلام كتفي ورأسي، وتضاعفت في اليوم السادس، وأخذت جراحي في التقيح، ثم صارت رائحة كريهة لا تطاق تنبعث منها.

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى ضابط الصف المسئول عن حراستنا ورجوته أن يأذن لي بالذهاب إلى الطبيب، وكان الضابط يتقن اللغة الروسية. قال لي: "اذهب إلى طبيبك أيها الروسي، وسيسعفك في الحال". ولم أدرك ما ينطوي عليه كلامه من سخرية إلا فيما بعد، حين سألت عن الطبيب فقالوا لي إنه في اسطبلات الخيول مع الجرحى المصابين بشدة. ومضيت إلى تلك الاسطبلات التي تقع قرب المعسكر، وكانت فيما مضى تابعة للمزارع التعاونية.

عند مدخل الاسطبلات التقيت بالطبيب، كان ضابطاً برتبة صغيرة، نحيفاً من شدة التعب، يكاد يجن مما حوله ومما عاناه شخصياً، فبدا لي أنه على حافة الموت والانهيار. كان الجرحى يرقدون على فرش من السبخ وهم على وشك الاختناق من الرائحة النتنة غير المحتملة التي عبأت الاسطبل. ورأيت كيف كانت الديدان تسرح وتشغي في جروح معظمهم، على حين كان القادرون منهم ينترون الديدان من جراحهم بأظافرهم أو بعيدان

صـغيرة. وفى ركن من الأركان رأيت كومة من جثث الموتى لم يسعف الوقت أحداً لنقلها خارج الاسطبل.

التفت إلىَّ الطبيب متسائلاً: "كيف أساعدك؟ بم أسعفك؟ ليس لدىَّ ضـمـادة واحـدة، بل وليس لدىَّ أى شىء على الإطلاق. أستحلفك بالله أن تنصرف من هنا. وإذا شئت نصيحتى فمزق ضمادتك ورش على جرحك قليلاً من الرماد.. سيساعدك ذلك. عند المدخل ستجد الرماد الطازج".

فـعلت مـا نصح به الطبـيب. وعند انصـرافى، قـابلنى عند المدخل، الضـابط الألمانى، واتسعت بسمته وهو يقول لى: "هيه.. كيف حالك؟ لديكم طبيب ممتاز.. لا شك أنه أسعفك؟". وقررت أن أتحاشاه، فسرت بجانبه صامتاً، لكنه لطمنى على وجهى بقبضته وصـاح بى: "ألا تود أن ترد علىَّ أيهـا الخنزير؟". وهويت واقـعـاً على الأرض وهو ينهال علىَّ ضرباً بأقدامه فى رأسى وصدرى.. واستمر يضربنى مدة طويلة حتى نهضت واقفاً على قـدمى، فكف.

لن أنسى ما حييت ذلك الضابط النازى، أبداً لن أنساه. فقد تكرر ضربه لى بعد ذلك أكثر من مرة، إذ كان يأمرنى بالخروج إليه حين يلمحنى عبر الأسلاك الشائكة، فـأذهب إليـه وهناك يشرع فى ضربى بكل قوته فى صمت وتركيز. وقد تتساءلون "كيف ظللت على قيد الحياة بعد كل ذلك؟". وأقول لكم إننى - قبل الحرب - وقبل أن أعمل بالمصنع اشتغلت حمـالاً، أسـاعد فى تفريغ المراكب عند شاطىء نهر "كامى"، وكان بوسعى حينذاك أن أحمل جوالين من الملح، زنة الواحد منهما مائة كيلو جرام.

صدقوني. كنت مفعماً بقوة هائلة وكان بنائي الجسماني متيناً. ولكن بقائي على قيد الحياة لا يعود إلى ذلك أساساً، بل إلى تصميمي على الحياة، وإلى إرادة المقاومة التي لم تتخل عني لحظة. كنت مشحوناً بالعزم على العودة إلى صفوف المقاتلين دفاعاً عن بلدنا لكي آخذ بثأري من العدو وأقاتله حتى الرمق الأخير.

فيما بعد نقلوني من ذلك المعسكر - ولم يكن إلا مركزاً لتوزيع الأسرى - إلى معسكر آخر يبعد عن الأول بحوالي مائة كيلو متر، أحاطته - مثلما في المعسكر القديم - الأعمدة العالية التي تضرب مع الأسلاك الشائكة سوراً حول المكان الذي لا سقف له. وكانوا يصرفون لنا الطعام على نفس النظام القديم، مع فارق واحد هو أنهم فيما ندر كانوا يقدمون لنا قدحاً من الحبوب المتعفنة بدلاً من الجريش النييء، أو يجرجرون إلى المعسكر الخيول النافقة ويتركون للأسرى تقسيمها فيما بينهم. وكنا نأكل تلك الجيفة لكي لا نموت من الجوع، ومع ذلك كانت المئات منا تموت بسبب ذلك الطعام.

حل شهر أكتوبر ببرد قارس فوق التصور، وتساقطت الأمطار بلا توقف، وامتد الصقيع يغطي الأرض كل صباح. ولم يساعدني في ذلك البرد حتى القميص ومعطف الجندية الذي نزعته عن أحد زملائي الذين ماتوا. وكنا قد اعتدنا على الجوع، بينما سمنت أبدان جنود الحراسة بما كانوا يسرقونه، فتشابهوا كأنهم من قالب واحد: فرقة منتخبة من الأنذال والسفلة. وفي صباح أحد الأيام، اقترب واحد منهم من الأسلاك الشائكة وذاع

علينا بواسطة المترجم:

- سنقوم الآن بتوزيع الطعام، التوزيع سيجرى عند الناحية اليسرى. انصرف بعد ذلك. وظللنا واقفين ننتظر الطعام ساعة، ساعتين، ثلاثاً. مئات من الهياكل العظمية الحية واقفة ترتجف فى مهب الريح فى انتظار الطعام. وفجأة عند الناحية اليمنى من الأسوار الشائكة - لا اليسرى كما قالوا - ظهر بعض الجنود وألقوا عبر الأسلاك بقطع من لحم الخيل الفاسد. واندفعت الجموع التى عضها الجوع الوحشى إلى الناحية الأخرى حيث قطع اللحم الملوثة بطين الأرض. وقهقه الحراس ملء أفواههم للحظة، ثم دوت بحدة طلقات المدافع الرشاشة متصلة لا تنقطع، وعلا صوت الصراخ والأنين من بين الأسرى المتساقطين وهرع من لم تصبه الطلقات إلى الناحية الأخرى من السور، تاركين من خلفنا على الأرض زملاءنا من الجرحى والموتى.

بعد لحظات دنا من السور الضابط المسئول عن المعسكر وبرفقته المترجم. وأمسك الضابط نفسه عن الضحك وقال: "عند توزيع الطعام، أثار بعضكم فوضى تدعو للاستياء. وإذا تكرر ذلك مرة أخرى، سأعطى الأمر بإطلاق النار عليكم بلا رحمة أيها الروس الخنازير. والآن نظفوا المكان من القتلى والجرحى".

وأغرق الجنود الواقفون خلف الضابط فى الضحك. لقد سرتهم نزوة الضابط الطريفة التى روح بها عنهم.

وأخذنا فى صمت نجرجر موتانا إلى خارج المعسكر، ثم قمنا بدفنهم فى مكان غير بعيد فى الوادى.

***

كانت جراحى قد التأمت، لكنها عادت فانفتحت من جديد بسبب الرطوبة الدائمة والضرب، وكانوا يضربوننا بقبضاتهم وبالعصى ومؤخرات البنادق، وكانوا يضربوننا هكذا بلا سبب محدد، لمجرد دفع السأم عن أنفسهم. وكنا ننام على الوسخ مباشرة من دون المراتب المحشوة بالقش، نتكدس فى كومة متلاصقة ونتجمد من البرد: الراقدون تحت فى الوحل، والراقدون فوقهم.. لم يكن نوماً وإنما عذاب لا يحتمله البشر فى الليل الممتد. وبالرغم من كل ذلك، كنت حياً، وبقيت على قيد الحياة.

ومرت الأيام على هذه الحال، كأنها حلم ثقيل ومرهق. ومع انقضاء كل يوم كان ضعفى يتزايد حتى أصبح بوسع أى طفل صغير أن يطرحنى أرضاً بدفعة واحدة. كنت فى بعض اللحظات أنظر فزعاً إلى ذراعى النحيفتين المكسوتين بطبقة رقيقة للغاية من الجلد، وأتساءل: "كيف يمكننى الهروب وأنا على هذه الحال؟". ولعنت نفسى فى تلك اللحظات لأننى لم أحاول أن أهرب فى الأيام الأولى. ألم يكن قتلى أثناء الهرب أهون من هذا العذاب البشع الذى أحياه؟

حل الشتاء، وكسحنا بين الثلوج مكاناً ننام فيه على الأرض المتجمدة من البرد. وفى الشتاء أخذ عددنا يتناقص باستمرار، حتى حل يوم أعلنت فيه إدارة المعسكر أنها خلال أيام معدودة سترسل الأسرى إلى مناطق يعملون بها. ودبت الحياة فى الجميع، واستيقظ الأمل فى صدر كل منا، أمل ضعيف حقاً، لكنه الأمل فى أن تلوح فرصة للهرب والنجاة من هذا الجحيم. وساد الهدوء فى تلك الليلة، هدوء غريب، وكان الجو بارداً. عند

حلول الفجر تناهى إلى أسماعنا صوت صفير المدافع، وبدأ الأسرى من حولى يقلقون. وحين تكرر الصفير مرة أخرى صاح أحدنا بصوت مرتفع: "إنهم رجالنا. أيها الزملاء.. رجالنا يهاجمون!". وحينذاك نهض كل أسير واقفاً، كأنما وحدهم أمر عسكرى، نهض الذين عجزوا عن الوقوف لأيام متتالية. كان ذلك شيئاً يفوق التصور، وترددت وشوشات وهمس حار ونحيب مكتوم، وبكى أحد الواقفين إلى جوارى بصوت نحيف كنهنهة النساء. وانحدرت الدموع على وجنتى أنا الآخر من شدة انفعالى وشعورى بأن أهلنا قريبون منا.. انحدرت دموعى وتجمدت فى الهواء البارد. وشرع أحدنا ينشد بصوت واهن نشيد بلادنا، وتبعته أصواتنا الخافتة، المتحشرجة. فتح الحراس نيران مدافعهم وبنادقهم علينا، ودوى الأمر الكريه: "انبطحوا". ورقدت ضاغطاً جسمى فى الثلوج وأنا أبكى مثل الطفل. لم تكن دموعى تعبيراً عن سعادتى فحسب، بل وعن اعتزازى وفخرى بشعبنا. حقاً كان بوسع النازية أن تقتلنا ونحن عزل منهكين من الجوع والعذاب، وكان بوسعها أن تسومونا أصناف العذاب، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على أرواحنا أو كسرها، ولن يتمكنوا من ذلك أبداً. لقد أخطأوا الهدف.. فنحن شعب لا يعرف الاستسلام.

***

فى تلك الليلة، لم أتمكن من الاستماع إلى قصة "جيراسيموف" حتى نهايتها. فقد استدعوه إلى هيئة الأركان على وجه السرعة. ولكننا التقينا مرة أخرى بعد أيام.

فاحت فى الخندق رائحة عفن وسائل "الراتينج" الذى تفرزه

أشجار الصنوبر. جلس "جيراسيموف" على دكة وقد أحنى صدره إلى الأمام وعقد يديه العظميتين الضخمتين فوق ركبتيه وقد تشابكت أصابعه. وتطلعت إليه، وتصورت أنه يجلس هناك في معسكر الأسرى، وأنه هناك بالتحديد قد اعتاد هذه الجلسة صامتاً وسارحاً في أفكاره المضنية بلا نتيجة.

- تسألني كيف تمكنت من الهروب؟ سأقول لك. في تلك الليلة بعد أن سمعنا صفير المدافع، نمنا، وفي صباح اليوم التالي أرسلونا للعمل في بناء التحصينات الألمانية. وكانت الثلوج قد بدأت في الذوبان، وتساقطت الأمطار. رتبونا في صفوف وساقونا بعيداً عن المعسكر في اتجاه الشمال. وتكررت اللوحة الكئيبة القديمة إذ أخذ المنهكون منا يتساقطون في الطريق فيلاحقهم رصاص جنود العدو. بل إن أحد الضباط أطلق النار على أحدنا لا لشيء، إلا لأنه انحنى أثناء سيرنا والتقط حبة بطاطس متجمدة من الحقل الذي كنا نعبره. كان اسمه "جونتشار"، من أوكرانيا كل جريمته أنه التقط حبة البطاطس اللعينة تلك، وأراد اخفاءها. ولاحظه الضابط الألماني فاتجه نحوه دون أن ينبس بحرف، وأطلق النار عليه من الخلف. وأوقفوا الطابور وأعادوا ترتيبه. وصاح بنا الضابط "فلتعلموا أن كل ما تقع عليه أعينكم هنا ملك للدولة الألمانية، وسيقتل على الفور كل من تسول له نفسه أن يمد يده إلى شيء".

مر طريقنا بعد ذلك عبر إحدى القرى، وما أن رأت النسوة طابور الأسرى المنهكين حتى شرعن يلقين لنا قطع الخبز وحبات البطاطس المسلوقة، وأسعف الوقت أحدنا فالتقط من الأرض ما

ألقته النسوة، ولم يلحق الآخرون بذلك. وفتح الحراس نيران مدافعهم على شبابيك البيوت وأمرونا أن نسرع الخطو. لكن الصبيان لا يهابون شيئاً، وهكذا أسرعوا أمامنا، يسبقوننا، وينتظرونا عند البيوت الأبعد فى الطريق. وهناك تركوا لنا على الأرض كسر الخبز، فكنا نلتقطها بسرعة أثناء سيرنا. وكانت حبة بطاطس كبيرة مسلوقة من نصيبى فاقتسمتها مع زميلى الذى مشى إلى جوارى، والتهم كل منا حصته بقشرتها. ولعلى لم آكل فى حياتى كلها شيئاً أشهى من حبة البطاطس تلك.

أخيراً، بلغنا إحدى الغابات، وهناك كان علينا أن نبنى التحصينات للعدو. وضاعف جيش العدو حراسته بشكل ملحوظ، وأعطوا كل منا معولاً لنبدأ العمل. وتمنيت لو استطعت أن أهدم ما حولى بدلاً من استكمال البناء فى التحصينات لأعدائنا.

فى ذلك اليوم، مع حلول المساء كنت قد عقدت العزم على الهروب. طلعت من الحفرة التى كنت أشتغل بها والمعول بيدى اليسرى، ودنوت من الحارس الذى وقف قربى.. وكان الباقون يقفون عند أخدود بعيد، ولم يكن بالقرب منى أحد سوى ذلك الحارس. اقتربت منه وأنا أغمغم: "لقد انكسر المعول. انظر..". ولمع فى ذهنى للحظة، أنه إذا لم تكفنى قوتى لإسقاطه من أول ضربة فإنه سيقتلنى لا محالة. وأغلب الظن أن الحارس لاحظ شيئاً غريباً فى التعبير المرتسم على وجهى لأنه هز كتفه، وشرع يخلع حزام مدفعه المعلق إلى كتفه، وأسرعت فهويت بمعولى على وجهه، ووجدته يهوى منطرحاً على ظهره دون أن يند عنه صوت. لقد أسعفتنى قوتى رغم كل شىء. وأصبح فى حوزتى مدفع،

وثلاثة شرائط من الذخيرة. وصرت أعدو، وأعدو، دون أن ألتفت إلى الخلف، حتى اكتشفت أننى لم أعد قادراً على الجرى، لقد استنفدت كل قواى. حينذاك توقفت والتقطت أنفاسى ومن جديد أخذت بالكاد أهرول، والغابة تزداد كثافة من حولى كلما ابتعدت عن الوادى. لا أذكر كم من المرات وقعت ونهضت من جديد، ولكنى مع كل دقيقة كانت تمر، كنت أصبح أبعد فأبعد وأنا أشهق وأكاد أختنق من التعب. أخيراً اخترقت الدغل الكثيف وبلغت الجانب الآخر من التل، وحينذاك فقط أخذت تتردد من بعيد أصوات طلقات المدافع الرشاشة متلاحقة وأصوات صياح جنود العدو، غير أن اللحاق بى كان قد أصبح صعباً.

أخذ بياض الفجر يخالط ظلمة آخر الليل فى السماء، وعلى الرغم من ذلك فقد احتطت واحتفظت لنفسى بطلقة أخيرة فى حالة إذا ما وقع العدو على أثرى ولاحقنى. وأنعشتنى هذه الفكرة: لن أصبح أسيراً عندهم حياً أو ميتاً. وواصلت سيرى وأنا أكثر هدوءاً وحذراً. وقضيت ليلتى تلك فى الغابة، على الرغم من أن إحدى القرى لاحت لى على بعد نصف كيلو متر، لكنى خفت أن اتجه إليها فأقع فى يد الألمان.

فى اليوم التالى، عثر الفدائيون من رجالنا علىَّ. وقضيت معهم أسبوعين فى خندق تحت الأرض حتى استعدت قوتى، وتحسنت صحتى. وقد عاملنى الفدائيون فى بادىء الأمر بحذر وريبة، رغم أنى عرضت عليهم بطاقتى الحزبية، وفيما بعد حين بدأت أقوم معهم بالعمليات الفدائية تبدلت فكرتهم عنى. وشرعت - فى الغابات وبين الأحراش - أحصى عدد من صرعتهم من

جنود العدو، ومازلت أواصل ذلك حتى الآن، وقد أوشك الرقم على أن يصبح مائة.. نعم.. مائة قتيل من أعداء بلادى.

فى شهر يناير، قام زملائى من الفدائيين بنقلى إلى الخطوط الخلفية. هناك مكثت شهراً فى المستشفى العسكرى، فاخرجوا الشظية من كتفى، أما الروماتيزم وبقية الأمراض الأخرى التى أصابتنى فى المعسكر فسأعالج منها بعد أن تنتهى الحرب. بعد العلاج أعطونى إجازة أسبوعاً للنقاهة، قالوا لى: "اذهب فاسترح فى بيتك قليلاً". وقد فعلت. لكنى لم أتحمل البقاء بين أهلى أكثر من أسبوع واحد. إذ أرقتنى الرغبة فى العودة إلى الجبهة. نعم. ولا شك أن وجود الإنسان فى بيته ووسط أهله أمر إنسانى، لكنى كنت أحس طيلة الوقت أننى أفتقد نفسى ومكانى الحقيقى هنا فى الجبهة وإلى النهاية.

***

ودعت "جيراسيموف" عند مدخل الخندق. وتطلع هو إلى الممر الممتد فى الغابة غارقاً فى أشعة الشمس، وقال بترو: "لقد تعلمت أن القتال والحرب بالمعنى الصحيح هى: الحب والكراهية. إن الحرب محك من نوع خاص، فهى تشحذ كل مشاعر الإنسان وتجعلها رهيفة إلى أقصى حد. قد يبدو من الغريب أن يجتمع الحب والكراهية معاً، خاصة أن المثل السائر يقول: "عبثاً تشد الحصان والوعل الهياب إلى عربة واحدة"، لكننا شددنا هذين الشعورين المتنافرين إلى عربة الحرب، بل إنهما يدفعان بالعربة إلى الأمام على أفضل وجه. أنا لا أطيق جنود النازية لكل ما اقترفوه فى حق بلادى، وفى حقى شخصياً. لكنى فى نفس

الوقت أحب وطني من أعماق فؤادى، وأكره أن أرى بلدى تحت وطأة الاحتلال. وهذا ما يدفعنا جميعاً إلى خوض المعارك بعنف شديد. إن هذين الشعورين يتجسدان فى عملنا وهما اللذان سيقودانا إلى النصر. إننا نعشق بلادنا، ونحمل كراهيتنا على أطراف حرابنا. عذراً إذا بدت كلماتى معقدة أو بليغة. لكنى أفكر على هذا النحو.

أنهى الملازم "جيراسيموف" حديثه،، وابتسم، للمرة الأولى منذ تعارفنا، بسمة بسيطة وقريبة للقلب مثل بسمة الأولاد ■

□□□

❖ الأمنية ❖

■ ياكوف سيجيل



- ماما.. انظرى.. رجل هناك أخرج لى لسانه.
- لا تهتمى به، الأرجح أنه يمازحك.
- لكن ها هو يخرج لى لسانه مرة أخرى.
- دعيه يفعل ما يشاء ولا تنظرى ناحيته.
- أوه يا ماما.. إنه يتطلع نحوى الآن.. وسيخرج لكِ أنتِ أيضاً لسانه!
- بس يا بنت أنت كل كلامك اختلاق.
- لكنه يتقدم نحونا يا ماما!
- أين هو؟ مَنْ مِنْ هؤلاء؟
- هذا هو.
- أوه! كوستيا! يا لها من مفاجأة!
- مرحباً.. أ.. أنا.. أهلاً، إنى أنظر إليكِ فأتحير: أهو أنتِ؟ أم أخرى تشبهك تماماً؟
- فعلاً يا كوستيا مفاجأة مذهلة، كأن ثلجاً سقط على رأسى.
- أرأيت يا ماما؟ وأنت قلت أنى أخترع من دماغى، وأن كل كلامى اختلاق.
- أهلاً يا كوستيا.
- إن نظرى - على أية حال - لم يخطئك يا مدام.
- مدام؟! لم تخاطبنى بشكل رسمى يا كوستيا؟
- أ.. لا.. فقط.. سهواً.. لقد استطعت أن أميزك، تغيرت فقط

تسريحة شعرك ولونه.

- ماما.. كان شعرك أشقر.. والآن كستنائي.. مضبوط؟

- وأنا أيضاً أذكر أن شعرك كان أشقر يا مدام.. آسف.. قصدي أنك كنت شقراء.

- نعم. وقتها لم يكن أحد يثق في أن ذلك هو اللون الطبيعي لشعري. كانوا يقولون لي: "هذه صبغة"! والآن وقد صبغت شعري بالفعل فلا أحد يخامره الشك في أن هذا هو اللون الطبيعي.. كم من الأعوام مرت ولم نلتق يا كوستيا؟ كم.. يا كوستيا؟

- منذ اثني عشر عاماً، أو على الأرجح أربعة عشر.

- عمي.. وأنا قريباً سأتم الست سنوات.

- لن تتميها بهذه السرعة.. سوف تبلغين السادسة، لكن بعد عام كامل!

- طفلتك مستعجلة.

- أنت كذلك يا كوستيا تستعجل الزمن. فقد مرت تسع سنوات لم نر فيها بعضنا البعض، وإذا أردت الدقة، فقد مضت تسع سنوات وشهران ونحن لا نلتقي.. لكن لم يمر بعد، لا اثنا عشر عاماً ولا أربعة عشر، لكنك كنت هكذا دائماً.. مستعجلاً..

- ربما.. محتمل أنكِ على حق.. بالفعل إنها تقريباً.. تسع سنوات وشهران..

- بالضبط. فقد حسبتها بالدقة ذات يوم.. بل بصراحة.. غالباً ما كنت أحسب تلك الأيام وهي تمر. نعم.. تسعة أعوام وشهران.

- ماما.. متى يصبح عمري تسع سنوات وشهران؟

- بعد أربع سنوات، وبعد ذلك ستبلغين سنى.

- وكم عمرك يا ماما؟

- كثير.

- كم؟ مائة سنة؟

- لم أبلغ المائة بعد. أصغر شوية صغيرة، عمرى سبع وعشرون سنة.

- وما رأيك يا لينا أننى حين أتطلع إليكِ الآن، يخيل إلىَّ أن شيئاً لم يتبدل فيك؟

- يخيل إليك فقط. على أية حال شكراً لك على المجاملة.

- وما اسم طفلتك؟

- ناستيا.. هل تذكر يا كوستيا.. كنت تقول لى حينذاك إن "ناستيا" هو أجمل اسم فى العالم. بل وكنت تتحسر لأن اسمى "لينا" وليس "ناستيا".

- حقاً؟

- كثيراً ما رددتَ ذلك، وحينما أنجبت، سميت طفلتى "ناستيا"، وها هى تقف أمامك بنتاً غير مطيعة تحمل "عروسة" على يدها.

- عمى.. هذه "العروسة" هى ابنتى، واسمها "كاتيا" لأن كل العرائس على اسم "كاتيا"..

- أفهم من ذلك أنكِ صرت جدة يا لينا؟

- نعم. صرت جدةً. وأنت يا كوستيا هل صرت أباً لصبى يا ترى أم لبنت؟

- لا صبى، ولا بنت، بل أنى لست متزوجاً.. الحقيقة كنت..

ـ كوستيا.. يا له من اسم.. كوستيا.. كوستيا!
ـ ماذا.. تكلمى يا لينا؟
ـ لا شىء.. ببساطة كنت أقلعت عن هذا الاسم. "كوستيا".. أقلعت عنه..
ـ ماما.. "عروستى" انقطعت رجلها.
ـ لا تضيّعيها.. هاتى أضعها أحسن فى حقيبة يدى، وحين نصل إلى البيت سأصلحها لكِ.
ـ لينا.. أردت أن اسألك..
ـ ماذا؟ اسأل.
ـ هل تذكرين، عندما سافرنا معاً.. أظن أننا كنا سافرنا إلى مدينة "تساريتيسينا"، أم أننا سافرنا حينذاك إلى "كراتوفا"؟
ـ "تساريتسينا".
ـ ذاكرتك قوية. فى مساء ذلك اليوم، وكانت الدنيا قد أعتمت، جرينا معاً إلى محطة القطار.
ـ مازلت تذكر على أية حال يا كوستيا، ساعتها كنت أنت مستعجلاً جداً.
ـ نعم. كنت ذاهباً إلى البيت.
ـ وأنا وقتها كنت أعيش فى بيت الطالبات.
ـ خشيت أن اتأخر فتقلق أمى علىَّ.
ـ كان بوسعك أن تتصل بها تليفونياً، هكذا فكرت أنا ساعتها، لكنى لم أقل لك ذلك. خجلت.
ـ بالفعل، كان بوسعى أن أتصل بها. لا أدرى لماذا لم تخطر ببالى هذه الفكرة؟ ربما كانت هناك أسباب.

- ربما، يا كوستيا.. لا أدرى.

- طيب.. الآن أريد أن اسـألك عن شىء آخـر. أتعـرفين عن ماذا؟

- أخمن تقريباً.. فى ذلك المساء حلمت بأمنية واحدة وقلت لنفسى:

إذا لحقنا بالقطار قبل أن يتحرك من المحطة، فسوف تتحقق أمنيتى، أما إذا لم نلحق به.. فلن ترى أمنيتى النور. وقد ركضنا حينذاك إلى درجة ظننت معها أن قلبى سيتقطع بين ضلوعى.

- ولكن.. ألم نلحق بالقطار؟

- نعم، لحقنا به، لكن أمنيتى لم تتحقق!

- شىء مؤسف بالطبع. جميل لو أن الأمنية تحققت.

- جميل؟! أتقول هذا وأنت لا تدرى أية أمنية كانت؟

- بالفعل. ما الذى تمنيته حينذاك؟ هل مازلت تذكرين؟

- طبعاً مازلت أذكر، لكن هذا لا يعنى أى شىء الآن..

- ومع ذلك، أود لو أعرف.

- عمى أتعلم.. فى البيت يوجد عندنا بابا.

- دقائق وسوف نمضى إلى بيتنا يا حبيبتى.

- أرجوك أن تتكلمى.. ماذا تمنيت حينذاك؟

- الآن.. لم يعد ممكناً الكلام عن ذلك يا كوستيا.

- لماذا؟ لم لا ترغبين فى الحديث؟ أتخافين ألا أفهمك؟

- ما الذى يمكن أن يخيفنى الآن يا كوستيا؟ ماذا يمكن أن أخشى الآن؟

- إذن قولى لى.

- لا.

- لماذا؟

- لأنه لم يمر أحد عشر عاماً، ولا أربعة عشر، لكن تسع سنوات وشهران بالضبط، ولأننا حينذاك لم نسافر إلى "تساريتسينا" أو إلى "كراتوفا" بل سافرنا بالتحديد إلى "إيركوتسك"، كذلك لأنني صرت أماً لطفلة - لا داعي للشقاوة يا ناستيا - سنذهب حالاً، وكذلك لأنه يوجد "بابا" الآن، وهو ينتظرنا فى البيت.

- أفهم.. ومع ذلك أرجو أن تقولى لى.. ماذا تمنيت حينذاك؟

- "چاكتتك" يا عمى.. مقطوع منها زرار.

- عارف.. شكراً يا "كاسيوشا".

- ليس اسمى "كاسيوشا"..

- آسف.. غلطة لسان.

- صافحى عمك يا ناستيا، ودعيه، واضح أنه مستعجل.

- إطلاقاً. بل وليس هناك مكان أتعجل الذهاب إليه.

- ناستيا.. هيا قولى لعمك مع السلامة.

- مع السلامة يا عمى.

- لكن صدقينى.. حقيقة.. لست مستعجلاً.

- نعم، ولكن هناك من ينتظرنا فى البيت. مع السلامة يا كوستيا.

- لينا.. هل يمكن.. هل يمكن.. هل تسمحين لى أن أتصل بك؟ ما هو رقم تليفونك؟

- وما الداعى إلى ذلك؟

- ببساطة أود أن أتصل بك..

- لماذا؟

- أنا نفسي لا أدرى لماذا.. لكن ببساطة هكذا..

- لا.. لا داعي يا كوستيا.

- مــامــا.. أنتِ نســيت رقم التليــفــون؟ أنا أقــدر أقــوله.. "٢٧٣٨٠".. مضبوط؟

- ماذا؟ قوليه مرة أخرى، لم أسمعه جيداً.

- ولا داعي لسماعه. أتمنى لك كل خير يا كوستيا.

- لينا. وهل تذكرين.. لقد ذهبنا معاً حينذاك إلى معرض الفضاء. لا أعرف ما الذى دعانا إلى ذلك حينها؟ لكنى أذكر أننا كنا معاً. هل تذكرين؟

- بالطبع. بل وأذكر السبب الذى دعانا حينذاك إلى الذهاب إلى المعــرض.. ومع هذا فلم يعــد لكل ذلك مــعنى الآن.. مع السلامة.

- ماما.

- ماذا يا حبيبتى؟

- عمى.. يتابعنا بعينيه.

- لا تديرى وجهك نحوه ■

❑❑❑

❖ زهرة الجريس ❖

■ فلاديسلاف باخريفسكي

ذات يوم فردت الطفلة بانيا ذراعيها وراحت تعبر جدول الماء فوق جذع شجرة يصل ما بين الضفتين. بعد ذلك امتدت الطريق منحنية إلى أسفل. شاهدت بانيا فى ذلك المنخفض أكمة من الشجيرات. من جديد ترتفع الطريق. عند الرابية العالية طالعت بانيا أشجار البتولا، وشاهدت الحقل القديم المهمل الممتد من خلف الأشجار ووسط الغابات.

قرب أشجار البتولا، كانت ثمار الفراولة الحلوة، وكانت قليلة حقاً.. لكن أمن المعقول أن تمر بانيا قربها ولا تتذوقها؟ كلا بالطبع. الفراولة أولاً، والحقل ثانياً، فهو باق ولن يجرى منها.

هكذا أخذت بانيا تتطلع إلى الحقل بعد أن أكلت من الفراولة، هذا الحقل الذى ظل يعيش وحده حيث نسيه الناس. نظرت إليه كان ممتلئاً كله بزهور الجريس الزرقاء، النامية على هيئة أجراس تجعلك تتخيل أن لها رنيناً مسموعاً. يكفى أن ترى هذه الزهور الرائعة، مرة واحدة فلا تنساها إلى الأبد. تأملها، ولو مرة واحدة، ثم أغمض عينيك، ستراها فى الحال مشتعلة فى خيالك، زرقاء مثل الفوانيس أو النجوم. بل إن السماء ذاتها لا تضيئها كل تلك النجوم، ولا تكون فى جمال هذا الحقل. وأنت لو شاهدته فسوف لا يفارق أحلامك طوال الليل، وستصبغ زهراته الحلم بلونها الأزرق الخفيف، وسيكون حلمك مجنحاً دون شك. لعل السماء بنجومها هى التى تشبه هذا الحقل بزهوره.

أخذت بانيا تتأمل حقلها ذاك. وفجأة لمحت فيه جناحى طائر كبيرين، رقد أحدهما دون حراك كأنما هو مكسور، وانتصب الآخر بشكل عمودى. ولم يكن هذان الجناحان لطائر.. لكن لإنسان!

رجل جلس على الأرض، معتمداً على ذراعيه، وجهه شاحب كأنه يعانى من الألم. كان يتطلع نحو السماء. لم تكن فيها سحابة واحدة أو أى شىء يستحق الرؤية.

ساور الشك بانيا، ترى هل ذلك الكائن إنسان أم لا؟ وسرعان ما فطنت إلى أنه إنسان بالفعل. إن له وجهاً بشرياً. لكن من يعرف؟ ربما فى مكان ما توجد طيور ذات وجوه بشرية. إنها تذكر مكنة الحياكة الملقاة فى المخزن العلوى فى بيت جدتها. ألم يكن مرسوماً عليها طائر ذو وجه بشرى؟ نعم. لكن لهذا الطائر الجالس فى الحقل ذراعين أيضاً. له جناحان.. و.. ذراعان، وبالإضافة إلى ذلك فهو قادر على الكلام لأنه حين رأى بانيا شرع يئن ثم قال لها:

- لا تخافى لقد التوى جناحى. اقتربى منى.

كان يمكن لبانيا أن تجرى هاربة، لكنها اقتربت منه وسألته:

- ماذا بك؟ هل أصبت برضوض؟

أجاب الإنسان الطائر:

- ساقى.

قالت بانيا مشيرة إلى الجناح:

- و.. وهذا؟

خافت بانيا أن تطلق على الجناح.. كلمة جناح، بل وحتى

حين صارت قريبة من الرجل فإنها لم تنظر مرة واحدة صوب جناحه، نعم.. أليس تأمل عاهات الآخرين عيباً؟

قال الرجل:

- كذلك التوى جناحي، لست أفهم كيف حدث هذا. كنت أطير بصورة رائعة، وفجأة كأن طائراً ضربني. لم أتبينه بوضوح، لكن يخيل إليَّ أنه طائر رمادي ضخم. أدارني من شدة الضربة، فتعلقت بالسماء، وألقى بي على الشجر، فوجدت نفسي هنا.

سألت بانيا وهي تنظر إلى وجهه:

- هل أحضر إليك حليباً؟

نظرت فقط إلى وجهه، ورقبته ذات التجاعيد، لأن جسمه لم يكن يشبه جسم الإنسان، كانت بقية جسمه كأنما مصبوبة في رداء رياضي - لكن من الريش - مشدودة بشرائط من المطاط.

سألته بانيا:

- من أنت؟

وبدا الإنسان الطائر وكأن الدهشة استولت عليه وقال:

- من أنا؟ ألا ترين من أنا؟

صاحت بانيا:

- كلا، أنا لا أقصد هذا. ربما ليس من حقي أن أكلمك عن هذا، لكن أنا أقصد هل أنت طيب القلب أم لا؟

أجابها دون أن يبتسم:

- طيب القلب.

- آه!

اطمأنت بانيا وانتحت ركناً على العشب جلست عليه. ها هي

قد عرفت أن الرجل الطائر طيب القلب ولذلك تجرأت قائلة:

- جئت إلى هنا أبحث عن زهرة الجريس ذات السبعة أوراق.

- ذات السبعة أوراق؟

- نعم. انظر حولك.. ستجد أن لكل زهرة جريس خمس أوراق فقط، لكن هذه الزهرة توجد أحياناً نادرة بست أوراق، ونادراً جداً بسبع أوراق.

تحرك الرجل مهتزاً قليلاً، ثم بسط ذراعه، وفى نفس اللحظة بان من خلف ظهره جناح ضخم وجبار يتمايل بريش أزرق اللون. صاح الرجل وهو يقتطف زهرة من الحقل:

- ها هى الزهرة السباعية.. خذيها.

اندهشت بانيا وقالت:

- نعم. إنها هى! أنت إذاً طيب القلب حقاً، لقد عثرت عليها فوراً.. هـ.. هل آتى إليك بحليب؟

قال الرجل الطائر:

- لا. شكراً لك. فقط قولي لى ما اسمك؟

- اسمي بانيا.

- هل من الصعب أن أصل إلى الغابة بساقى العرجاء هذه؟ أتعرفين.. أخشى أن يتغضن جناحى هنا.. آه لو استطعت أن تحضرى لى عصا جيدة، ولو كانت عوداً من الخشب مثل هذا كى أنهض معتمداً عليها.

قالت بانيا:

- لكن أليس من الأفضل أن أصنع لك كوخاً من الخوص تبقى فيه هنا؟ أنا أستطيع ذلك وفى الكوخ سوف لا يبللك أى مطر.

أما الطعام فسأحمله إليك، فأنا التى أحلب بقرتنا. أليس البقاء هنا أحسن؟ على أرضنا؟ لا تخف من شىء.. ألم تر أبداً حقلاً مثل هذا؟

- كلا. إنه بالفعل حقل جميل.

قالت بانيا:

- قديماً كان الناس يزرعونه. الآن أهملوه لأنه فى مكان بعيد. أتعرف.. لو كنت أنا صاحبة الأمر، لأخذتك معى إلى بيتى. إن ماما طيبة جداً. ولن تخاف منك، أما بابا فقد سافر إلى "تايمير".

سرح الرجل الطائر بفكره فى شىء ما. انتفضت بانيا قائلة:

- آه.. لا تظن أنى ثرثارة.. لن أقص على أحد أى شىء، وحتى ماما، رغم أننا صديقتان هى تقول لى كل أسرارها، وأنا كذلك، لكنى لن أحكى لها عنك. أو سأحكى لها فيما بعد حينما يشفى جناحك تماماً.

قال الإنسان الطائر:

- حقاً، كل شىء جميل فى هذا الحقل، وأنا واثق أنك ما كنت لتتركينى وحدى هنا. كنت أحب لو بقيت هنا، لكنهم سيبحثون عنى.

- آه!

اومأت بانيا برأسها علامة الفهم ثم قالت:

- بالطبع، لو أن الكثيرين يطيرون مثلك، فلابد من أن يراهم البعض. حينئذ سيكتبون عن ذلك فى الجرائد.

ونهضت بانيا وهى تقول:

- سآتى إليك بعصا من شجر البتولا. وما أن تفوهت بكلماتها تلك، حتى أسرعت إلى الغابة، وهناك شرعت تبحث عن عصا محنية الرأس، حتى يستطيع الرجل أن يتوكأ عليها. عصا لا تكون جافة فتنكسر، مناسبة ليست قصيرة ولا طويلة. بحثت عنها حتى وجدتها بالمقاس المطلوب. اعتمد عليها الرجل ونهض. ورأته بانيا للمرة الأولى واقفاً. كان طويلاً، سماوى اللون، مصعر الخد. من خلف ظهره بدا جناحاه وبلغا الأرض بريشهما الأزرق الطويل، كان أحدهما منتصباً والآخر مدلى.

أصاب الفزع بانيا فسألته:

- هل يؤلمك جناحك؟

- ساقاى هى التى تؤلمنى..

- ربما تورمت، كان لابد من لفها.

- لا شىء لدىَّ ألفها به.

- سآتى أنا بشىء ما. وجرت بانيا مسرعة.

صاح بها الإنسان الطائر:

- انتظرى.. انتظرى.

- سأجد شيئاً ما فى غمضة عين. وبالفعل لم تستغرق بانيا سوى لحظة، استدارت فيها هنا وهناك باحثة عما يصلح للف ساق الرجل، وإذا به قد اختفى من الحقل. وفكرت بانيا "ربما كان بين زهرات الجريس، أو خلف الأعشاب العالية". ودارت كالنحلة فى الحقل تبحث عن الإنسان الطائر، لكنها لم تجده. ولم تكن تعرف كيف.. أو بماذا تناديه؟

وخرت بانيا راقدة على الأعشاب وهى تبكى. بكت وقتاً طويلاً

حتى أراحها البكاء وخففت الدموع من حزنها، فاستغرقت فى النوم.

بحثت الشمس حتى عثرت بأشعتها على بانيا، وأدفأتها، ثم حان وقت مغيب الشمس فغربت. واستيقظت بانيا من نومها، وإذا الدنيا ليل من حولها. استولت عليها رعدة مفاجئة. الليل! قفزت وأخذت تجرى صوب البيت، إلا أنها توقفت عند أشجار البتولا على الطريق، توقفت واستدارت نحو الحقل ونادت بصوت خافت:

- هيه!

لم يرد أحد على ندائها الخافت الرقيق. وفى هذه اللحظة شاهدت بانيا نجمة تطير فى السماء لم تر مثلها من قبل، نجمة زرقاء كبيرة، اشتعلت مثل الأنوار البنغالية. راح الشرر يتساقط منها، لكنها لم تنطفىء، وظلت طائرة مدة طويلة.

كان من الممكن لبانيا فى تلك اللحظة أن تضمر فى نفسها الكثير من الأمنيات التى تريد لها أن تتحقق، لكنها لم تفكر فى ذلك ولم تعبأ به، فقد استولت عليها نشوة وهى تفكر: "لقد حلق وطار.. على الرغم من كل شىء طار". واعتقدت بانيا أن تلك النجمة هى الرجل الطائر. نعم.. ومن الذى يستطيع أن يحلق هكذا؟ النجوم؟ كلا. لأن النجوم إذا انفلتت من السماء تحترق على الفور. إنه هو. نعم. هو فقط ■

□□□

الفهرس

إشارات

المؤلفون :

* باوستوفسكى ١٨٩٢ - ١٩٦٨

كونستنتين باوستوفسكى من أشهر الروائيين والقصاصين الروس من أعماله «الحمى» ١٩٣٣، «الأيام الصيفية» ١٩٣٧، «الصبا القلق» ١٩٤٥، «زمن الانتظار الكبير» ١٩٥٩.

* ميخائيل سولوخوف ١٩٠٥ - ١٩٨٤

حصل على جائزة نوبل، وجائزة لينين الروسية، من أهم أعماله «قصص من الدون»، «السهل اللازوردى»، رواية «الدون الهادئ».

* بلجاكوف ١٨٩١ - ١٩٤٠

ميخائيل بلجاكوف قاص ومسرحى روسى من أهم أعماله مسرحيات «أيام عائلة تورين»، «الهروب»، «شقة زوينكا»، «الجزيرة الأرجوانية»، «الأيام الأخيرة».

* تيريفينوف ١٩٢٥ - ١٩٨١

يورى فلاديميروفتش تيريفينيف من أعماله الروائية «الطلاب» «إطفاء الظمأ»، «نفاد الصبر»، «المقابل»، «حياة أخرى»، «العجوز».

* زوشنكا ١٨٩٥

ميخائيل ميخائيلوفتش زوشنكا كاتب ساخر امتد إبداعه من القصة القصيرة إلى الرواية من أهم أعماله «حكايات السيد نازارإيليتش»، «الكتاب السماوى»، رواية «العلاقات الخطرة».

* ياكوف سيجيل ١٩٢٣ - ١٩٥١

كاتب مسرحى وقاص وممثل سينمائى من أعماله «الخبز» ١٩٦٦، «مسرحية البسمة لا تفارقنى» ١٩٧٥ والعديد من القصص والسيناريوهات.

إشارات

* أندريه بلاتونوف ١٨٩٩
شاعر وقاص ترجمت أعماله إلى مختلف لغات العالم، من أعماله الشعرية ديوان «العمق الأزرق» ومن أعماله القصصية «بوابات سدود مدينة بيفان»، «نهر باتودان» وله العديد من المقالات والدراسات التى نظرت للحركة الإبداعية فى روسيا.

* فاسيلي شوشكين ١٩٢٩ - ١٩٧٤
من أبرز الكتاب والفنانين السوفييت الذين ظهروا فى السبعينات قاصاً وروائياً وممثلاً ومخرجاً مرموقاً، من أهم أعماله «سكان الريف»، «العجوزان»، «هناك بعيداً»، «نماذج بشرية» ورواية «جئت أهبكم الحرية» وعدد من سناريوهات الأفلام الهامة.

* بلاديسلاف باخريفسكى ١٩٣٦
شاعر وقاص وروائى سوفيتى معاصر من أشهر رواياته «الدرب إلى الشمس» ١٩٦٧، «إنى أحمل ابنى على كتفى» ١٩٧٣، «العروس» ١٩٧٧، وديوان «مرج الخيول».

* كازاكوف ١٩٢٧
يورى بافلوفيتش كازاكوف أحد كبار الكتاب السوفييت المعاصرين من أعماله القصصية مجموعات «مانكا»، «محطة القطار»، «فى المدينة»، «الطريد»، «آدم وحواء».

* ايليا ايرنبورج ١٨٩١ - ١٩٦٧
ايليا جريجوريفتش ايرنبورج من أشهر رواياته «العاصفة»، «سقوط باريس»، «ذوبان الثلوج»، «الزقاق الممتد».

إشارات

* بونين ١٨٧٠ - ١٩٥٣

كاتب وشاعر روسى حصل على جائزة نوبل ١٩٣٣، وجائزة بوشكين ١٩٠١ عن ديوانه «تحت سماء مفتوحة» من مجموعاته القصصية «تانكا»، «عند طرف العالم»، «التفاح الأنطونى»، «الطريق الجديدة»

* ريميزوف ١٨٧٧ - ١٩٥٧

الكسى ميخائيلوفتش ريفيزوف من أهم أعماله «دف لايسكت» رواية «البركة»، «الساعات»، «فى اتجاه الشمس».

المترجم : د. أحمد الخميسى

كاتب وصحفى مصرى، حصل على الدكتوراه فى الأدب المقارن من جامعة موسكو عام ١٩٩٢ وله العديد من الترجمات عن الروسية مثل : «نساء الكرملن» و«أسرار المباحثات السوفيتية العراقية» .

الفنان : بيكاسو ١٨٨١ - ١٩٧٣

بابلو بيكاسو من أهم فنانى القرن العشرين بدأت مسيرته الفنية من التعبيرية إلى السيريالية والتكعيبية، تتدرج ألوانه من الزرقاء إلى الوردية .

لوحة الغلاف : «وجه بول» ١٩٢٣ من المرحلة الزرقاء

«٢٢,٢ × ٢٧,٣» سم، زيت على قماش .

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
مدن الآخرين	أشعار ترجمة : أحمد ع. حجازى
صحراء التتار	رواية : دينو بوتزاتى ترجمة : موسى بدوى
الحب	رواية : مارجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوى
أساطير	تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق
نشيد بحرى	شعر : فرناندو بيسوا ترجمة : المهدى أخريف
هبة الطوطم	أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق
أزهار الشر	شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة
مرآة الحبر	نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد ابراهيم
النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
الشعر والتجربة	تأليف : أرشيبالد مكليش ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى
رامبو وزمن القتلة	تأليف : هنرى ميللر ترجمة : سعدى يوسف
مداخل الشعر	تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوى
باختين : المبدأ الحوارى	تأليف : تودوروف ترجمة : فخرى صالح

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

عراف الضوء
شعر للمكفوفين الإسبان
ترجمة : إلهام عيسى

التأويل والتأويل المفرط
تأليف : امبرتو اكو
ترجمة : ناصر الحلوانى

عصر البنيوية
تأليف : إديث كريزويل
ترجمة : د. جابر عصفور

الدراسة النفسية للأدب
تأليف : مارتن ليندآور
ترجمة : د. شاكر عبد الحميد

هبوط الليل
شعر : و. هـ. أودن
ترجمة : د. ماهر شفيق فريد

الغرفة الفارغة
شعر : جاك أنصي
ترجمة : محمد بنيس

قصيدة النثر
تأليف : سوزان برنار
ترجمة : د. زهير مجيد مغامس

ساعي البريد يدق الباب مرتين
رواية : جيمس كين
ترجمة : أحمد عمر شاهين

قصر الضحك
شعر : زبيجنيف هيربرت
ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم

الملاك الصامت
رواية : هاينرش بول
ترجمة : طلعت الشايب

مصباح اللذات
الشعر الفارسي المعاصر
ترجمة : محمد اللوزى

الأنا الآخر
قصص من أمريكا اللاتينية
ترجمة : د. طلعت شاهين

السرير المائدة
شعر: بول إيلوار
ترجمة : إدوار الخراط

همس الأمواج
رواية: يوكيو ميشيما
ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز

الدودة الهائلة
كافكا، الأعمال الكاملة ـ ١
ترجمة : الدسوقى فهمى

النقد الأدبى
مجموعة نقاد فرنسيين
ترجمة : د. هدى وصفى

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ ـ يونيو ٩٨)

أغانى شيراز (ج ١)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
حرب مع السمندر	رواية: كارل تشابك ترجمة : حسين العامل
هذا هو الإنسان	تأليف : نيتشه ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد
منظورات	نصوص : چورج حنين ترجمة: بشير السباعى
أغانى شيراز (ج ٢)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
رسائل إلى ميلينا	رسائل: كافكا ترجمة : الدسوقى فهمى
اكتب إليك من بلد بعيد	نصوص : هنرى ميشو ترجمة : سامى مهدى
السقوط على الأرض	أشعار : تيد هيوز ترجمة : سهيل نجم
بيانات السوريالية والأوانى المستطرقة	نصوص : أندريه بروتون ترجمة : صلاح برمدا
موجز تاريخ الاتحاد السوفيتى	تأليف : روچيه جارودى ترجمة : نورا أمين
تاريخ المسألة المصرية	تأليف : تيودور رتشتين ترجمة : عبد الحميد العبادى ومحمد بدران
الديمقراطية	تأليف : دليل بيرنز ترجمة : محمد بدران
امرأة فى الثلاثين	تأليف : مجموعة كتاب قصة ترجمة : علاء الديب

آفاق الترجمة
(يوليو ٩٨ ـ يونيو ٩٩)

كتاب الطباع	تأليف : ثيوفراسط ترجمة : عبد الغفار مكاوى
شدو البلبل	قصص : ڤولڤجانج بورشرت ترجمة : سمير مينا جريس
الطفل المنبوذ	تأليف : ميلان كونديرا ترجمة : رانية خلاف
عدوى اللدود وأحلى سنين	روايتا : ويللا كاثر ترجمة : ايزابيل كمال
الصراع مع الملاك	شعر : جاك بريڤير ترجمة : سامى مهدى
نهاية العالم هذا المساء	رواية : كاترين دو ريشو ترجمة : شيرين محمود الخطيب
التراث والتطور	تأليف : إحسان نراقى ترجمة : عبد الوهاب علوب
الحرير	رواية : أليساندرو باريكو ترجمة : طلعت الشايب
محاكمة ترابيس	تأليف : فردريش دورنمات ترجمة : كريم حسين نعمه
لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكى	تأليف : إيتالو كالڤينو ترجمة : مى التلمسانى
شهر العسل المر	تأليف : لمجموعة ترجمة : ادوار الخراط
الغول	تأليف : بيتر ڤايس ترجمة : فؤاد حداد

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٨ ـ يونيو ٩٩)

في الأعداد القادمة

فلاسفة وفنانون

مشاهد زوجية

رقم الإيداع
٩٩/١٦٠٢٥

المركز المصرى العربى ت : ٥٨١٥٦٠٧